البلاغة القرآنية
في
آيات الرؤيا المنامية

د/ محمد مصطفى محمود ليلة
مدرس البلاغة والنقد في كلية
الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالقاهرة
جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفصح العرب أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم...

وبعد:

فالقرآن الكريم معجزة الله الخالدة، الذي أعجز الأولين والآخرين أن يأتوا بسورة من مثله، ولذا فإن أفضل ما توجه إليه الجهود والعناية والاهتمام، ويبذل في سبيله كل نفيس هو خدمة كتاب الله – تعالى – والبحث حول بلاغته وإعجازه، وبديع تراكيبه، وحسن نظمه، وجودة سبكه، وروعة أدائه من أفضل القربات التي يتقرب بها العبد إلى ربه، ولذا كان اختياري لهذا البحث البلاغي: "البلاغة القرآنية في آيات الرؤيا المنامية" وقد رتبتها بحسب ورودها في القرآن الكريم وترتيبها في المصحف.

وقد انتظم البحث في مقدمة، وتمهيد، وستة مباحث، وخاتمة.

أما المقدمة: ففيها أهمية هذا البحث، وخطته، والمنهج الذي تسير عليه هذه الدراسة.

وأما التمهيد: ففيه التعريف بالرؤيا، والفرق بينها وبين الحلم.

المبحث الأول: رؤيا النبي ﷺ يوم بدر.

المبحث الثاني: رؤيا يوسف عليه السلام.

المبحث الثالث: رؤيا صاحبي السجن.

المبحث الرابع: رؤيا ملك مصر.

المبحث الخامس: رؤيا إبراهيم عليه السلام.

المبحث السادس: رؤيا النبي ﷺ في الحديبية.

وأما الخاتمة: ففيها أهم نتائج البحث. ثم أعقبتها بفهرس للمراجع وآخر لموضوعات البحث.

وكان منهجي في هذا البحث ما يلي:

كنت أذكر موطن الرؤيا في القرآن الكريم، ثم بيان سبب نزوله إن وجد أو المعنى العام له، ثم التحليل البلاغي له، وذلك بدراسة كل الألوان البلاغية الموجودة فيه، دراسة كلية تهتم بالسياق، وتآزر الألوان البلاغية المختلفة، وبيان كل ما في الموطن من أسرار بلاغية مختلفة سواء تعلقت بعلم المعاني أو البيان أو البديع، وذكر كلام البلاغيين والمفسرين فيه، وبيان مواطن الاختلاف إن وجدت، والتوفيق بينها ما أمكن.

والله أسأل أن يجعل أعمالنا صالحة، ولوجهه خالصة، وأن يرزقنا فهم كتابه، والوقوف على أسراره، وأن يجعل لي هذا العمل في الميزان إنه الجواد المنان.

وصلى الله على خير الأنام سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

دكتور/ محمد مصطفى محمود ليلة

مدرس البلاغة والنقد في الكلية

التمهيد

ويتضمن:

1- تعريف الرؤيا.

2- الفرق بين الرؤيا والحلم.

تعريف الرؤيا

اهتمت الشريعة الإسلامية بجميع شئون الحياة الدنيوية والأخروية، وبـأحوال الإنسان المختلفة، ومنها ما يحدث له في النوم من مشاهدات، وخيالات ومبـشرات ومحزنات، وما يسمى بالرؤيا التي يراها النائم، فلم تترك شيئاً إلا وبينته، وفـصلت القول فيه.

وقد عرف العلماء "النوم" وهو الحالة التي يرى فيها الإنسان رؤياه بأنه "حال تعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة، بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأساً" [١].

وفي تعريف الرؤيا: جاء في القاموس المحيط: "الرؤية" النظر بالعين والقلـب، والرؤيا: ما رأيته في منامك جمع: رؤى[٢].

وفي مختار الصحاح: الرؤية بالعين... ورأى في منامه رؤيا على وزن "فُعلـى"، وجمع الرؤيا: رؤى بالتنوين[٣].

فالرؤيا على وزن "فعلى" وهي ما يراه الإنسان في منامه وجمعها: رؤى، وفرقوا بينها وبين الرؤية بأن الرؤية ما كانت بالعين ، وقد تجيء الرؤيا بمعنى: الرؤية كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [٤] حيث رأى النبي ﷺ بيت المقدس وجعل يصفه للمشركين.

وقال الراغب الأصفهاني: الرؤية: إدراك المرئي ، وذلك أضرب بحسب قوى النفس.

---

(١) الكليات : ١٤٩٦ وينظر التعريفات: ٢٢٢.

(٢) القاموس المحيط : "رأى".

(٣) مختار الصحاح : "رأى".

(٤) الإسراء : ٦٠.

الأول: بالحاسة وما يجرى مجراها نحو قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [1] وقوله: ﴿ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ [2].

والثاني: بالوهم والتخيل نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ﴾[3].

والثالث: بالتفكير نحو قوله تعالى: ﴿ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ [4].

والرابع: بالعقل نحو قوله تعالى: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ [5].

وقال: والرؤيا: ما يرى في المنام، وهو فُعلى، وقد يخفف فيه الهمزة فيقال بالواو[6].

وعن حقيقة الرؤيا يقول القاضي أبو بكر بن العربي: الرؤيا إدراكات علقها الله- تعالى- في قلب العبد على يدي ملك أو شيطان، إما بأسمائها أي: حقيقتها، وإما بكناها أي: بعباراتها، وإما تخليط، ونظيرها في اليقظة الخواطر، فإنها قد تأتي على نسق في قصة، وقد تأتي مسترسلة غير محصلة... وقال غيره بأنها اعتقادات.

والصحيح ما عليه أهل السنة أن الله يخلق في قلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان، فإذا خلقها فكأنه جعلها علماً على أمور أخرى يخلقها في ثاني الحال، ومهما وقع منها على خلاف المعتقد فهو كما يقع لليقظان، ونظيره أن الله خلق الغيم علامة على المطر، وقد يتخلف ، وتلك الاعتقادات تقع تارة بحضرة

---

(1) الزمر : ٦٠.

(2) التوبة : ١٠٥.

(3) الأنفال : ٥٠.

(4) الأنفال : ٤٨.

(5) النجم : ١١.

(6) المفردات : "رأى".

الملك فيقع بعدها ما يسر، أو بحضرة الشيطان فيقع بعدها ما يضر،والعلم عنـــد الله تعالى[١].

والرؤيا الصادقة حالة يكرم الله بها بعض أصفيائه الـــذين زكـــت نفوســـهم، فتتصل نفوسهم بتعلقات من علم الله وتعلقات من إرادته وقدرته، وأمره التكويني، فتنكشف بها الأشياء المغيبة بالزمان قبل وقوعها، أو المغيبة بالمكان قبل اطلاع الناس عليها.

وللرؤيا مراتب:

منها: أن تُرى صور أفعال تتحقق أمثالها في الوجود...

ومنها: أن تُرى صور تكون رموزاً للحقائق التي ستحصل أو التي حصلت في الواقع... وغير ذلك[٢].

---

[١] فتح الباري : ٤/١٦.

[٢] التحرير والتنوير : ٢١٠/١٢.

الفرق بين الرؤيا والحلم

وردت "الأحلام" في القرآن الكريم ثلاث مرات [١]، فجاءت على لسان الملأ من قوم عزيز مصر حين سألهم أن يفتوه في رؤياه: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ [٢]، وجاءت في جدل المشركين وافترائهم على القرآن والرسول ﷺ: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [٣] ويشهد سياقها بأنها الأضغاث المشوشة ، والهواجس المختلطة ، وأتت في المواضع الثلاثة بصيغة الجمع ، دلالة على الخلط والتشويش ، لا يتميز فيه حلم عن آخر.

وأما الرؤيا فجاءت في القرآن الكريم سبع مرات، ففي سورة الأنفال جاءت رؤيا النبي ﷺ يوم بدر في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [٤] وفي سورة يوسف جاءت رؤيا يوسف عليه السلام : ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ وجاءت رؤيا صاحبيه في السجن ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ وجاءت رؤيا ملك مصر: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ...﴾ [٥] وجاء في سورة الصافات رؤيا إبراهيم عليه السلام ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [٦]

---

[١] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم :٢١٦ "حلم" .

[٢] يوسف : ٤٤.

[٣] الأنبياء : ٥.

[٤] الأنفال : ٤٣.

[٥] يوسف : آيات ٤، ٣٦، ٤٣.

[٦] الصافات : ١٠٢.

سورة الفتح رؤيا النبي ﷺ في الحديبية وذلك في قوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ﴾ [1].

وكل هذه الرؤى في الرؤيا الصادقة، ولم تستعمل إلا بصيغة المفرد، وفي ذلك دلالة على التميز والوضوح والصفاء.

ومن بين المرات السبع جاءت أربع مرات للأنبياء، فهي من صدق الإلهام القريب من الوحي.

وهناك ثلاث رؤى لغير الأنبياء، رؤيتان لصاحبي يوسف عليه السلام في السجن، ورؤيا ملك مصر، وقد صدقت هذه الرؤى، وصدقت رؤيا الملك، وعبر عنها القرآن الكريم بالرؤيا لوضوحها في منامه وجلائها وصفائها، وإن بدت للملأ من قومه هواجس أوهام وأضغاث أحلام.

وقد ذكرت الدكتورة/ عائشة عبد الرحمن أن الرؤيا جاءت خمس مرات للأنبياء، وذكرت منها رؤيا النبي ﷺ في الإسراء،وذلك في قوله تعالى:﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ وقد ذكر الحافظ بن حجر قول ابن عباس: إنها رؤيا عين وقال: ويحتمل أن تكون الحكمة في تسمية ذلك رؤيا لكون أمور الغيب مخالفة لرؤيا الشهادة فأشبهت ما في المنام...وذكر قول القرطبي: قال بعض العلماء: قد تجيئ الرؤية بمعنى الرؤيا كقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [2] فزعم أن المراد بها ما رآه النبي ﷺ ليلة الإسراء من العجائب، وكان الإسراء جميعه

---

[1] الفتح : ٢٧.

[2] الإسراء : ٦٠ وينظر الإعجاز البياني للقرآن : ٢١٥، ٢١٦ ، ومن وحي القرآن: ١١٩، ١٢٠.

في اليقظة. وقال: وعكسه بعضهم فزعم أنه حجة لمن قال إن الإسراء كان مناماً، والأول المعتمد [١].

وعلى ذلك فالرؤيا والحلم كلاهما ما يراه الإنسان في المنام، ولكن غلبت الرؤيا على: ما يراه الإنسان من الخير والشيء الحسن. والحلم: ما يراه الإنسان من الشر والشيء القبيح والمشوش، ويؤيد ذلك قول النبي ﷺ: ﴿الرؤيا من الله والحلم من الشيطان﴾ [٢].

---

[١] ينظر فتح الباري : ٤/١٦.

[٢] الحديث رواه مسلم ، ك الرؤيا : ١٧٧١/٤. وينظر الكليات: ٦٣٤/١.

المبحث الأول
رؤيا النبي ﷺ يوم بدر.

قال تعالي: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ الأنفال:٤٢.

المعنى العام:

في هذه الرؤيا يرى النبي ﷺ المشركين في منامه قليلاً، فقص ذلك على أصحابه، فكان ذلك سبباً لثباقم، ولو رآهم في منامه كثيراً لفشلوا، وجبنوا عن قتالهم، وتنازعوا في أمر قتالهم هل يلاقونهم أو لا؟ ولكن الله – سبحانه – سلمهم وعصمهم من الفشل والتنازع فقللهم في عين الرسول ﷺ، وهو عليم بما سيكون في الصدور من الجراءة ، والجبن ، والصبر ، والجزع[1].

التحليل البلاغي:

قوله: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلها وهي قوله: ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾[2] لما بينهما من كمال الاتصال، فهي بمثابة بدل اشتمال منها، فهذه الرؤيا مما اشتمل عليه زمان كونهم بالعدوة الدنيا، لوقوعها في مدة نزول المسلمين بالعدوة من بدر، وفي ذلك تقرير للحكم السابق وتقويته بتعيين المراد وإيضاحه، وذلك ببيان نعم الله في رؤية نبيه ﷺ ما يكون سبباً في تثبيت المؤمنين وتشجيعهم على عدوهم.

والتعبير بالمضارع "يُرِيكَهُمُ" عن الماضي "أراكهم" وذلك لاستحضار حال تلك الصورة العجيبة في الذهن، وتذكيرهم بالنعم التي أنعم الله بها عليهم، فقد مضت هذه الرؤيا بالنسبة لزمن نزول هذه الآية.

---

[1] ينظر فتح القدير :٢/٣١٤.

[2] الأنفال : ٤٢.

وقوله: " فِي مَنَامِكَ " أي في رؤياك، وقيل: عني بالمنام محل النوم وهو العين أي: في موضع منامك ، روى ذلك عن الحسن، فيكون فيها إيجاز بحذف المضاف، أو يكون من قبيل المجاز المرسل، علاقته المحلية حيث "أطلق اسم الحال على المحل، لأن التقدير: في عينيك" [١].

وأميل إلى أنها من قبيل الحقيقة، لأن الرؤيا تكون في المنام لا في العين، ولأنه ذكر بعد هذه الآية قوله: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ [٢] فتكون هذه الرؤية الالتقاء والمواجهة وتلك التي معنا رؤيا النوم. ولذا يقول الإمام الزمخشري: "وهذا تفسير فيه تعسف، وما أحسب الرواية صحيحة فيه عن الحسن، وما يلائم علمه بكلام العرب وفصاحته"[٣].

"والرؤيا صادقة في دلالتها الحقيقية، فقد رآهم رسول الله ﷺ قليلاً، وهم كثير العدد، ولكن قليل غناؤهم، قليل وزنهم في المعركة، قلوبهم خواء من الإدراك الواسع، والإيمان الدافع، والزاد النافع.. وهذه الحقيقة الواقعة – من وراء الظاهر الخادع – هي التي أراها الله لرسوله فأدخل بها الطمأنينة على قلوب العصبة المسلمة" [٤].

والغرض من هذا الخبر تذكير المؤمنين بنعمة الله – سبحانه – وذلك برؤية النبي ﷺ المشركين في منامه قليلاً غناؤهم ووزنهم في المعركة ، ليخبر أصحابه بهذه الرؤيا التي ثبتتهم وشجعتهم على لقاء عدوهم ، وهذا كناية عن وهنهم وضعفهم.

---

[١] البرهان : ٢٨٢/٢ وينظر: القرطبي:٢٢/٨، وفتح القدير:٣١٣/٢، والكشاف: ١٦١/٢.

[٢] الأنفال : ٤٤.

[٣] الكشاف : ١٦١/٢.

[٤] في ظلال القرآن : ١٥٢٦/٢.

وقوله: ﴿ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ أي: لو رآهم كثيراً لخرتم وجبنتم عن لقاء عدوكم وتفرقت آراؤكم في أمر قتالهم، فيكون ذلك سبباً لانهزامكم، وعدم إقدامكم على قتال عدوكم.

وقدم الفشل على التنازع لأنه سبب من أسبابه، ومقدمة من مقدماته، فلو أرى الله المؤمنين كثرة المشركين لجبنوا عن لقائهم، وحدث بينهم تنازع في لقائهم.

ونكر قوله: "كثيراً" لإفادة التكثير والتعظيم، وهو مبني على الشرط الذي لم يتحقق، حيث أن النصر كان حليفهم، ولو تحقق الشرط لفشلوا وهزموا، وهو رؤيتهم في المنام كثيراً.

وبين قوله: "قليلاً وكثيراً" طباق أكد المعنى في الذهن ووضحه، وقوله: "ولتنازعتم في الأمر" يقال: نزع الشيء: حوله عن موضعه، وإن كان على نحو الاستلاب، ونزع الأمير العامل من عمله: أزاله.والنازعات: تنزع الأنفس من صدور الكفار كما يفرق النازع في القوس: إذا جذب الوتر[١]. والتنازع: التخاصم ، وأصله: المجاذبة في الأعيان شبهت بها المجاذبة في المعاني ، حيث شبه تداولهم الرأي فيما بينهم بتجاذب الشيء ، فكأن المجادل ينتزع الرأي لينسبه إلى نفسه ، وذلك على سبيل الاستعارة التبعية. أو شبه "الأمر" – والمراد به: الخطة التي يجب إتباعها في قتال العدو من ثبات أو انجلاء القتال... وغير ذلك.

فالتعريف في "الأمر" للعهد، وهو أمر القتال وما يقتضيه [٢] – شبه بالشيء المحسوس الذي يتصور فيه المجاذبة، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو "التنازع" على سبيل الاستعارة المكنية. وهذا يوضح مدى خلافهم فيما بينهم،

---

(١) لسان العرب : "نزع".

(٢) التحرير والتنوير : ٢٤/١٠.

ويوحي بمدى حرص كل منهم على ما معه من رأي إذا لم يخبرهم النبي ﷺ برؤياه ، فكانت رؤياه رحمة لهم ، وحفاظاً على وحدة صفهم ، وتـآلفهم ونصـرهم علـى عدوهم.

ووصل بين هذه الجملة وما قبلها وذلك للتوسط بين الكماليين مـع عـدم المانع، وجمع ضمير الخطاب في الجزاء، وذلك في قوله " لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـازَعْتُمْ " مـع إفراده في الشرط في قوله " أَرَاكَهُمْ " حيث وضع الجمع موضع المفـرد، فأسـند الفشل والتنازع إلى الصحابة، لأن النبي ﷺ معصوم من ذلـك، فأسـند الفشـل والتنازع إلى من يجوز في حقه ذلك، ويشير إلى ذلك العلامة "الألوسي" بقوله: "جمع ضمير الخطاب في الجزاء مع إفراده في الشرط للإشارة إلى أن الجـبن أو الفشـل يعرض لهم لا له ﷺ إن كان الخطاب للأصحاب فقط، وإن كان للكل أي للرسول ﷺ وأصحابه، يكون من إسناد ما للأكثر للكل"[١]، وهذا من محاسن القـرآن [٢] وقوله: " وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ " أي: أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع في أمـر قتـال المشركين. ووضع الظاهر لفظ الجلالة "الله" موضع الضمير فلم يقل: ولكنه وذلك لقصد التأكيد على إسناد السلامة من الفشل والتنازع إلى الله – تعالى– وأنه كـان برعايته وعنايته، وللاهتمام بتثبيت قلب النبي ﷺ وأصحابه، وذلك برؤيته المشركين في المنام قلة في الوزن والقيمة ، وذلك ليثقوا بنصر الله وتأييده لهم. وقوله: "سلم" فعل متعد، حذف متعلقاه المفعول والجار والمجرور، لدلالة قوله " لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ " عليه وذلك للإيجاز، والتقدير: سلمكم من الفشل والتنازع.

يقول الشيخ/ الطاهر بن عاشور:

---

[١] روح المعاني : ٨/١٠ ، وينظر حاشية القونوي: ٩٣/٩.

[٢] البحر المحيط : ٣٣٠/٥.

"مفعول"سلم" ومتعلقه محذوفان إيجازاً إذ دل عليه قوله " لَفشِلْتُمْ ولَتنازَعْتُمْ "
والتقدير: سلمكم من الفشل والتنازع بأن سلمكم من سببهما، وهو أراءتكم واقع عدد المشركين، لأن الاطلاع على كثرة العدو يلقى في النفوس تهيباً له، وتخوفاً منه، وذلك ينقص شجاعة المسلمين الذين أراد الله أن يوفر لهم منتهى الشجاعة"[١].

وقوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بالأحوال المصاحبة لضمائر النفوس، فأوحى الله إلى رسوله بتلك الرؤيا الرمزية لعلمه بما في الصدور البشرية من تأثر النفوس بالمشاهدات والمحسوسات أكثر مما تتأثر بالاعتقادات، فعلم أنه لو أخبركم بأن المشركين ينهزمون، واعتقدتم ذلك لصدق إيمانكم، لم يكن ذلك الاعتقاد مثيراً في نفوسكم من الشجاعة والإقدام ما يثيره اعتقادي أن عددهم قليل، لأن الاعتقاد بأنهم ينهزمون لا ينافي توقع شدة تنزل بالمسلمين، من موت وجراح قبل الانتصار، فأما اعتقاد قلة العدو فإنها تثير في النفوس إقداماً واطمئنان بال، فلعلمه بذلك أراكهم الله في منامك قليلاً[٢].

وفي الآية تشابه أطراف، فختام الآية ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ مناسب ومتسق مع ما تقدم من السياق، فلما علم الله ما يكون من بعض الصحابة من خوف وجبن وجزع في قتال المشركين أراهم قلة في منام النبي ﷺ فثبت قلبه وأصحابه، وكل ذلك يتعلق بعلم الله سبحانه.

---

[١] التحرير والتنوير : ٢٤/١٠.

[٢] المرجع السابق : ٢٥/١٠.

المبحث الثاني

رؤيا يوسف عليه السلام.

قال تعالي: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۞ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ يوسف: ٤ ، ٥.

المعنى العام:

في هذه الرؤيا يبين يوسف عليه السلام أنه رأي رؤيا غريبة ، وهو صغير ، فقصها على أبيه يعقوب عليه السلام ففهمها فهماً مجملاً ، وعلم من خلالها أن يوسف عليه السلام سيكون له شأن عظيم ، وسلطان كبير يسود به أهله ، ولذا خاف أن يسمع إخوة يوسف ما سمع ، فيفهموا منها ما فهمه فيحسدوه ويكيدوا له ، فقد رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر مجتمعين ، ورآهم ساجدين له ، وفي ذلك تعظيم له ، وعلو لشأنه ، ولذا نهاه أبوه عن قص رؤياه على إخوته ــ بعد ما فهم منها أن الله يبشره ببشريات عظيمة له ، منها خضوع إخوته وتعظيمهم له ــ كيلا يحسدوه ويحتالوا للإيقاع به ، ويسول لهم الشيطان ذلك ــ وفى ذلك بيان لمدى حرصه الشديد على تجميع قلوب بنيه على المحبة والتآلف والتآزر، وأن الكيد وإن وقع منهم فإن ذلك من الأمور الطبعية التى تقع من البشر بتسويل الشيطان لهم ، ولذا فلا يكن في صدره حرج من جهل إخوته عليه في المستقبل ، ويأتي تأويل الرؤيا في نهاية السورة ، فالشمس والقمر أبوه وأمه ، والأحد عشر كوكباً إخوته.

التحليل البلاغي:

قوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلها ، وهي قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [1] لما بينهما من كمال الاتصال ، فهي بمثابة

(١) يوسف : ٣.

بيان أو بدل منها ، وفي ذلك تقرير وتأكيد وتقوية لما سبق ، لأن ما ذكر في قوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ لم يتضح المراد منه ، لأن أحسن القصص يشتمل على قصص كثير،فلما جيء بالجملة الثانية ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ تعين المراد واتضح.

والإضافة في قوله "لأبيه" توحي بأن يوسف عليه السلام أفضي برؤياه إلى أقرب الناس إليه ، ومستودع أسراره ، ومن يتيقن فيه العلم والورع ، لتأويل رؤياه. ولذا قال الرسول ﷺ : " الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوة ، والرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدث بها صاحبها ، فإذا حدث بها وقعت ، فلا تحدثوا بها إلا عاقلاً أو محباً أو ناصحاً " [(١)].

ومع كون أبيه حاضراً معه ناداه بأداة النداء الموضوعة للبعيد "يا" في قوله " يَا أبتِ " للدلالة على رفعة أبيه وعلو شأنه ، وللدلالة على عظم الكلام الآتي بعد النداء ، ليهتم به أبوه وينتبه له، وفي ذلك استعارة تبعية في الحرف "يا" حيث شبه مطلق نداء القريب بمطلق نداء البعيد ، بجامع مطلق الدعاء في كل ، ثم استعيرت "يا" الموضوعة لنداء البعيد لنداء القريب ، وذلك لرفعة شأن المنادى وزيادة في تنبيهه وتأكيد دعائه.

والإضافة في " أبَتِ " توحي بالبر والطاعة، والتنبيه على محل الشفقة والعطف في طبع الأبوة ، وفيها جلب لانتباهه ، واستدرار لعطفه وحنانه ، وحرص على إخباره برؤياه العجيبة عله يجد عنده ما يطمئن قلبه ويريحه.

وقوله: ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ "من الرؤيا لا من الرؤية.. لقوله: ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ ﴾[(٢)] ولأن الظاهر أن وقوع مثل هذه الأمور البديعة في

---

(١) التمهيد لابن عبد البر: ١/٢٨٣.

(٢) يوسف: ١٠٠.

عالم الشهادة لا يختص برؤية راءٍ دون راءٍ ، فيكون طامة كبرى لا يخفى على أحـــد من الناس"[١].

ولئلا يتردد يعقوب عليه السلام في رؤيا يوسف عليه السلام أكد له الخبر بـــ"إن" ليـــتمكن ويثبت في ذهن أبيه حتى لا يظن أنه يلهو ويلعب، لأنه مازال غلاما، وتقديم المـــسند إليه "ضمير المتكلم"على خبره الفعلي﴿ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ يفيد تقوية وتأكيد رؤياه وأهميتها، وقوله: ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا والشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ قيـــل: الشمس والقمر أبواه، وقيل: أبوه وخالته، والكواكب إخوته ويكون ذلك من قبيل ذكر الخاص بعد العام لاختصاصه بمزيد رفعة وفضل وشرف على غيره . قال الإمام الزمخشري ـــرحمه اللهـــ:جاء ذكر الشمس والقمر معطوفين على الأحد عشر كوكبا بيانا لفضلهما واستبدادهما بالميزة على غيرهما من الطوالع، كما أخر جبريل وميكال عن الملائكة ثم عطفهما عليها بعد ذلك.[٢]

ويحتمل أن تكون الواو بمعنى "مع" أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر ، ولا يبعد أن يكون ذلك إشارة إلى تأخر ملاقاته عليه السلام لهما عن ملاقاته إخوته "[٣].

ونكر قوله: ﴿ كَوْكَبًا ﴾ للتفخيم والتعظيم من شأنها.

وقوله: ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ فصل بين هذه الجملة وما قبلها لما بينـــهما من شبه كمال الاتصال ، فالإخبار عن مجرد رؤية الكواكب والشمس والقمر يـــثير في النفس تساؤلاً واستفساراً عن كيفية هذه الرؤيا ، وهيئة المرئي ، فـــأتي قولـــه:

---

(١)تفسير أبي السعود:٢٥٢/٤.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ البقرة:٩٨.

(٣) الكشاف: ٣٠٢/٢ وينظر: تفسير أبي السعود: ٢٥٢/٤.

﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ كشفاً لتلك الرؤيا ، وبياناً لحال المرئي ، فهو كلام مستأنف استئنافاً بيانياً ، بين حالهم التي رآهم عليها ، كأن يعقوب عليه السلام لما سمع من يوسف عليه السلام " إِنِّي رَأَيْتُ " ساله عن حال رؤيتها فقال: ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾[1] وكرر الفعل " رَأَيْتُ " لتأكيد رؤيته ، ويحتمل أن يكون رآهم أولاً غير ساجدين ثم رآهم ثانيةً يسجدون له ، لأنه لو رآهم ساجدين من أول الأمر لكان يمكن أن يقال عن وضعهم هكذا – ساجدين من أول الأمر – فهذه حالهم ، لكنه رآهم على الحقيقة أولاً بدون سجود، ثم رأى المنظر الثاني ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ ولذا تكررت كلمة "رأى" فرأى الأولى للحقيقة قبل أن تسجد ، و"رأى" الثانية للحقيقة ساجدة"[2].

وتقديم الجار والمجرور "لي" على عامله شبه الفعل " سَاجِدِينَ " لإظهار العناية بما هو أهم ، وكذا لمراعاة الفاصلة ، وعبر به عن معنى تضمنه كلام يوسف عليه السلام بلغته يدل على حالة في الكواكب من التعظيم له تقتضى الاهتمام بذكره ، أفاده تقديم المجرور"[3].

ومن المعلوم أن الكواكب لا يتأتى منها ما يتأتى من العقلاء ، ولكن القرآن أجراها مجرى العقلاء ، حيث أعاد الضمير عليها الذي يعاد به على العقلاء ، وذلك في قوله: ﴿ رَأَيْتُهُمْ ﴾ بدل "رأيتها" وأجرى وصف من أوصاف العقلاء عليها حيث قال: ﴿ سَاجِدِينَ ﴾ بدل "ساجدة" "إذ الجمع بالواو والنون مختص بالعاقل ، وذلك لوصفها بصفاتهم وهي السجود ، وهو إما استعارة مكنية

---

(1) ينظر المرجع السابق نفسه ، ومفاتيح الغيب: ١٠٢/٥.

(2) ينظر موسوعة تفسير سورة يوسف: ٦٨.

(3) ينظر التحرير والتنوير: ٢٠٠٨/١٢.

بتشبيههم بقوم عقلاء مصلين ، وضمير العقل والسجود قرينة تخييلية وترشيح ، أو استعارة تمثيلية ، شبه الهيئة الملتئمة من الشمس والقمر والكواكب المذكورة وخضوعهم ليوسف عليه السلام بالهيئة المنتزعة من الساجدين وسجودهم للمعبود ، وخضوعهم للملك الودود ، فاستعمل اللفظ الموضوع للهيئة المشبهة بها في الهيئة المشبهة[1].

وفي هذا تقرير لفضل يوسف عليه السلام وطهارته وذكاء نفسه وصبره على البلاء ، وبيان لعلو شأنه ، ورفعة مقامه ، ليكون على ذكر من ذلك كلما حلت به ضائقة فتطمئن بذلك نفسه.

"وإنما أخبر يوسف عليه السلام أباه بهاته الرؤيا ، لأنه علم بإلهام أو بتعليم سابق من أبيه أن للرؤيا تعبيراً ، وعلم أن الكواكب والشمس والقمر كناية عن موجودات شريفة ، وأن سجود المخلوقات الشريفة له كناية عن عظمة شأنه ، ولعله علم أن الكواكب كناية عن موجودات متماثلة ، وأن الشمس والقمر كناية عن أصلين لتلك الموجودات فاستشعر على الإجمال دلالة رؤياه على رفعة شأنه فأخبر بها أباه..." [2].

ولما علم يعقوب عليه السلام من دلالة هذه الرؤيا أن يوسف عليه السلام يبلغه الله مبلغاً عظيماً من الحكمة ، ويصطفيه للنبوة ، وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه الكرام ، خاف عليه حسد الإخوة وبغيهم ، فقال صيانة لهم من ذلك ، وله من معاناة المشاق ، ومقاساة الأحزان ، وإن كان واثقاً بأن الله – تعالى – سيحقق ذلك

---

[1] حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: ٢٥٢/١٠.

[2] التحرير والتنوير: ٢٠٨/١٢.

لا محالة ، وطمعاً في حصوله بلا مشقة: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ وفصلت هذه الجملة عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، فالجملة مثيرة لسؤال فكأن سائلاً قال: فماذا قال يعقوب عندما سمع هذه الرؤيا من يوسف –عليهما السلام–؟ وتصلح هذه الجملة أن تكون بمثابة جواب عن هذا السؤال ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾.

ونادى عليه بمثل ما نادى يوسف عليه السلام عليه بأداة النداء "يا" للاهتمام به وبالرؤيا التي جاء بها ، وللدلالة على شرفه وعلو شأنه ، والتصغير في "بُنَي" يدل على التحبب والعطف والشفقة على هذا الصغير السن.

وقوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ خرج النهي عن معناه الحقيقي إلى المعنى المجازى والمراد به النصح والإرشاد، وذلك حباً له وخوفاً عليه ، وقد تآزر مع دلالة النهي عدة أمور توحي بعظم حب يعقوب ليوسف–عليهما السلام– ومدى حرصه وخوفه عليه منها: التصغير في "بُنَي"، ولتأكيد المراد بالنهي جاء فك الإدغام في قوله: ﴿تَقْصُصْ﴾ وكذا خوف كيد إخوته له ، وتأكيد ذلك بالمصدر "كيداً".

وقد صحب النداء " يَا بُنَيَّ" النهي " لا تَقْصُصْ " وذلك لضمان اهتمام المخاطب والتفاته وتتبعه لما سيلقى عليه ، فيجعل النفس أشد تهيؤاً وتقبلاً لما سيأتي بعد النداء من عدم قص الرؤيا على إخوته ، فيتمكن ذلك في ذهنه أيما تمكن.

وقوله: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي: إن تقصها عليهم يحسدوك فيدبروا ويحتالوا للإيقاع بك تدبيراً شيطانياً يحكمونه بالتفكير والروية ، كما يفعل الأعداء في المكايد الحربية. يقال كاده إذا وجه إليه الكيد مباشرة ، وكاد له إذ دبر الكيد

لأجله سواء كان لمضرته وهو المراد هنا ، أو لمنفعته ، ومنه قوله تعالى في تدبير يوسف لإبقاء أخيه عنده: ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾[١].

وهذا الأسلوب آكد من أن يقال: فيكيدوك كيداً ، إذ ليس فيه دلالة على كون نفس الفعل مقصود الإيقاع ، وقد قيل: إنما جيئ باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدى باللام، ليفيد معنى المضمن والمضمن فيه للتأكيد ، أي: فيحتالوا لك ولإهلاكك حيلة وكيداً"[٢].

وأكد الفعل "يكيدوا" بالمصدر "كيداً" للمبالغة في ثبوت الكيد ، وأنه واقع لا محالة، وهو من صفات الضعيف العاجز الذي يلجأ إليه لعدم قدرته على مواجهة عدوه ومصارحته ، فيظهر له المودة واللين وفي الوقت نفسه يضمر له الحقد الدفين.

والتنكير في المصدر "كيداً" للتعظيم ، يعني كيداً منكوراً خفياً عن فهمك مع التعظيم لهذا الكيد ، أي: كيداً مثبتاً راسخاً لا تقدر على الخلوص منه ، والمقصود زيادة مبالغة في التخويف"[٣].

وقوله: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ استئناف بياني جاء تعليلاً للنهي في تحذير يعقوب ليوسف-عليهما السلام- ولذا فصل بين هذه الجملة وما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، فكأن سائلاً قال: كيف يكيد الإخوة لأخيهم ويؤذونه؟ وتصلح هذه الجملة أن تكون جواباً عن هذا السؤال﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ

---

[١] يوسف: ٧٦.

[٢] ينظر تفسير أبي السعود:٢٥٣/٤، وتفسير المنار: ٢١٠/١٢.

[٣] ينظر فتح القدير: ٤/٣.

للإنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ وكأن يوسف عليه السلام استبعد وقوع الكيد في حقه من إخوته الناشئين في بيت النبوة فأزال أباه استبعاده وبين له أنه من كيد الشيطان[1].

و"أل" في "الشيطان ، والإنسان" لبيان الجنس والحقيقة ، فحقيقة الشيطان من طبيعتها العداوة لحقيقة الإنسان منذ خلق آدم عليه السلام وإلى قيام الساعة.

وقد أكدت هذه الجملة بـ "إن" وإسمية الجملة ، وتقديم الجار والمجرور "للإنسان" اهتماماً ، ثم النعت بالوصف "مبين" لاستجماع اهتمام يوسف عليه السلام واستحضار قلبه ، ولبيان مدى حب يعقوب عليه السلام لولده ، وشدة حرصه عليه.

---

(1) المرجع السابق نفسه.

المبحث الثالث

رؤيا صاحبي السجن.

قال تعالي: ﴿ ودَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يوسف (٣٦).

في الآيات السابقة "لما ذكر السجن وكان سبباً ظاهراً في الإهانة ، شرع سبحانه يقص من أمره فيه ما حاصله أنه جعله سبب الكرامة ، كل ذلك بياناً للغلبة على الأمر ، والاتصاف بصفات القهر مع ما في ذلك من بيان تحقق ما تقدم به الوعد الوفي ليوسف عليه السلام وغير ذلك من الحكم "[1].

وقد عمّر ملك مصر فيهم فملّوه ، فدس بعضهم إلى خبازه وصاحب شرابه أن يسماه لما ضمن لهما مال ، فأجاب الخباز وأبى صاحب الشراب ، فانطلق صاحب الشراب فأخبر الملك بذلك ، فأمر الملك بحبسهما فاستأنسا بيوسف عليه السلام في السجن ، سواء أكانا مع يوسف في البيت الذي كان فيه أم كانا حبسهما مع حبس يوسف عليه السلام فى نفس الوقت أو بعده ،ولعلهم تعمدوا إدخال يوسف عليه السلام مع الفتيين في نفس اللحظة على حساب أنهم ممن علقت بهم شبهة المؤامرة على قتل الملك إضافة لإشاعة اتهامه بأنه أراد سوءاً بامرأة العزيز ، وبهذا يكونوا قد أوقعوا التشويش على حدث سجنه "[2].

---

[1] نظم الدرر: ٣٧/٤.

[2] ينظر تفسير القرطبي:١٨٨/٩ ، والتفسير القرآني للقرآن: ١٢٧/١٢ ، وتاريخ الأنبياء: ١٣٨.

التحليل البلاغي:

قوله: ﴿ ودَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ معطوف على محذوف والتقدير: ثم بدا لهم من بعدما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين فسجنوه ودخل معه السجين فتيان،

وقوله ﴿ فَتَيَانِ ﴾ تثنية فتى، وقال فتيان ، لأنهما كانا عبدين والعبد يسمى فتى صغيراً كان أم كبيراً..، ولعل الفتى كان أعطى للعبد في عرفهم ، ولهذا قال: ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِه ﴾[1] ويحتمل أن يكون الفتى أعطى للخادم وإن لم يكن مملوكاً"[2].

وقدم المفعول " السِّجْنَ " على الفاعل " فَتَيَانِ " للاهتمام بالمقدم ، والتشويق إلى المؤخر ليتمكن في النفس فضل تمكن. وأخر المفعول " السِّجْنَ " عن الظـرف " مَعَهُ " لئلا يتوهم أن يكون الظرف خبراً مقدماً على المبتدأ " فَتَيَانِ " لو قيل: ودخلا السجن معه فتيان، وتكون جملة: معه فتيان حالا من فاعل دخل.

وقوله: ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ فصل بين هذه الجملة ومـا قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، فالجملة الأولى مثيرة لسؤال فكأن سـائلاً قال: ماذا قالا بعدما دخلا معه السجن؟ وتصلح هذه الجملة أن تكون جواباً عـن هذا السؤال " قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي..." وفي ذلك إسراع لبيان ما كان من شأن الفتيين مع يوسف عليه السلام عندما رأيا إحسانه.

ويقول شيخ البلاغة العربية الإمام "عبد القاهر الجرجاني" عند حديثه عن هذا الموطن من الفصل والوصل: "اعلم أن الذي تراه في التنزيل من لفظ "قال" مفصولاً غير معطوف ، هذا هو التقدير فيه – والله أعلم – جاء على مـا يقـع في أنفـس المخلوقين من السؤال ، فلما كان العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل هـم:

---

(١) يوسف: ٣٠.

(٢)تفسير القرطبي:١٨٨/٩.

"دخل قول على فلان فقال كذا" أن يقولوا: "فماذا قال هو؟ ويقول المجيب: "قال كذا" أخرج الكلام ذلك المخرج، لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه ، وسلكه باللفظ معهم المسلك الذي يسلكونه"(١).

وعبر بالمضارع " أَرَانِي " عن الماضي "رأيتني" لاستحضار الصورة الماضية وقوله: ﴿ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ أي: عنباً ففي قوله: "خمراً" مجاز مرسل ، علاقته اعتبار ما سيكون حيث أطلق لفظ "الخمر" على الثمر الذي يعصر ، لأن هذا الثمر يؤول إلى خمر، ولعل هذا الإطلاق ينبه المؤمن ويلفته إلى رزق الله الحسن ، وما ينبغي على المؤمن إزاءه. إن الواجب عليه أن يأكل منه حلالاً طيباً ، وألا يصيره إلى سكر ويحوله إلى خمر ، فلما كان العصر مغيراً الثمرات ومحولاً لها إلى خمر ، سكت النظم الكريم عن ذكر الثمر الذي يعصر ، وأطلق عليه اسم ما سيصير إليه إسراعاً بالإفصاح عن الضرر الناجم عن الفعل ليدرك المؤمن أن هذا العصر يجب ألا يكون ، ولذا لعن ﷺ الخمر ، وشاربها ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وجاء في بيان أضرارها الكثير من الأخبار، فهي مفسدة للعقل ، متلفة للصحة والمال وهي أم الخبائث"(٢).

وفي طي مراحل العصر والتصفية والتعتيق حتى يصير العنب خمراً دلالة على براعة هذا الساقي وسرعته في تنفيذ ما يكلف به.

كما أن المراد من العصر العصر الذي يؤول إلى الخمر ، فما كل العنب يعصر لأجل التخمير ، فهناك أنواع مخصوصة من العنب تعصر للخمر ، فالمقصود بالعصر هنا هو تخزين المعصور ليصير خمراً.

---

(١) دلائل الإعجاز: ٢٤٠.

(٢) من بلاغة النظم القرآني: ٣٨٤.

"وهناك غرض آخر للمجاز وهو الإيجاز الناشئ من عموم الشيء المعصور الذي يمكن أن يتحول إلى خمر ، فقد يكون عنباً أو تمراً أو شعيراً أو تفاحاً ، ولذا حَسُن تسمية غير الحدد باسم الحدد الذي يؤول إليه المعصور ، فقوله تعالى على لسان ذلك الشخص: ﴿ أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ أوجز من أراني أعصر عنباً أو تمراً أو تفاحاً ، ليصير خمراً"[1].

ويحتمل أن يكون قوله "خمراً" من قبيل الحقيقة ، فالخمر بلغه عمان اسم للعنب ، وفي قراءة ابن مسعود – رضي الله عنه – "أعصر عنباً"ويكون المراد من العنب هذا النوع المخصوص منه لكثرة مائه وسرعة اختماره ، دون ما يؤكل في الغالب تفكهاً، لكبر حجمه ، واكتناز شحمه ، وقلة مائه ، ولكل منهما أصناف"[2].

ويحتمل أن يكون قوله "خمراً" من قبيل الإيجاز بالحذف ، حيث حذف المضاف وناب المضاف إليه منابه ، والتقدير: عنب خمر.

ولذا يقول الإمام "الفخر الرازي" عند تفسيره لقوله تعالي: ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ كيف يعقل عصر الخمر؟ الجواب فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن يكون المعنى أعصر عنب خمر ، أي العنب الذي يكون عصيره خمراً ، فحذف المضاف.

الثاني: أن العرب تسمي الشيء باسم ما يؤول إليه إذا انكشف المعنى ولم يلتبس.

والثالث: قال أبو صالح: أهل عمان يسمون العنب بالخمر ، فوقعت هذه اللفظة إلى أهل مكة فنطقوا بها. قال الضحاك: نزل القرآن بألسنة جميع العرب"[3].

---

[1] أساليب البيان والصورة القرآنية: ٣٨٠.

[2] تفسير المنار: ٢٥٠/١٢.

[3] التفسير الكبير: ١٣٤/١٨. وينظر تفسير القرطبي:١٨٩/٩ وأبي السعود:٢٧٥/٤.

وقدم المسند إليه "ضمير المتكلم" في " إنِّي " على خبره الفعلي " أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا " وذلك لدلالة على أهمية المخبربه والاعتناء بشأنه ، وهو أمر رؤياه.

ولما أخبر القرآن قصة أحدهما وهو الساقي ، أتبع ذلك بذكر الآخَر فقال:﴿ وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا ﴾ وعرف " الآخَرُ " بلام العهد الكنائي الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾،

وأكدت الجملة بأكثر من مؤكد في قولهما: ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ وقوله: ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا ﴾ بـ "إن" واسمية الجملة ، وذلك لتوكيد الخبر وبيان تحققهما مما يقولانه.

وعبر بالمضارع في قوله: " أَرَانِي " عن الماضي "رأيتني" وذلك لاستحضار الصورة الماضية ، وكأنها واقعة مشاهدة له ، مما يدل على تأكيد ما يقوله وتحققه منه.

وقدم الظرف " فَوْقَ رَأْسِي " على الخبر " خُبْزًا " للاهتمام به والتشويق إلى الخبر ، ليتمكن في النفس عند وروده أيما تمكن.

ونكر قوله: " خُبْزًا " للتكثير والتعظيم ، وهذا لفظ وحيد في القرآن [1] أخذ منه أهل التفسير أن هذا الفتى كان خبازاً في قصر الملك[2].

وقوله: ﴿ تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ أي تنهش منه ، وهذه الجملة في محل نصب صفة لقوله: " خُبْزًا " ، ويحتمل أن تكون مستأنفة استئنافاً بيانياً ، وفصل بينها وما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، فالجملة الأولى وهي قوله: ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا ﴾ مثيرة لسؤال ، فكأن سائلاً قال : لماذا تحمل فوق

---

[1] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٢٧٨.

[2] تفسير الطبري: ٢١٤/١٢، التفسير الكبير: ١٣٤/١٨.

رأسك الخبز؟ وتصلح هذه الجملة وهي قوله: ﴿ تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ لتكون جواباً عن هذا السؤال.

واللام في "الطير" للعهد الذهني ، فالمراد فرد من أفراد الطير غير معين ، وهذا يتطابق مع الغرض المذكور ، فالمقصود أنه وقع أكل ، وكان الأكل من طير ، إذ ليس الغرض تحديد عدد أو نوع.

وقدم المسند إليه "ضمير المتكلم" في قوله: " إنّي " على خبره الفعلي وهو قوله: ﴿ أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا ﴾ للدلالة على أهمية المخبر به ، والاعتناء بشأنه ، وهو أمر رؤياه.

وقوله: ﴿ نَبِّئْنَا بتأويله ﴾ الأمر في قوله: "نبئنا" المراد به: الالتماس فهما يلتمسان من يوسف عليه السلام أَنْ يؤول لهما رؤياهما، وقوله: "بتأويله" أي: قال له كل واحد منهما: نبئني بتأويل ما رأيت ، أي: بتفسيره الذي يئول إليه في الخارج إذا كان حقاً لا من أضغاث الأحلام ، ويصح إعادة الضمير المفرد – في قوله "تأويله" – على الكثير كاسم الإشارة – ذلك – بمعنى المذكور أو ما ذكر منه ، ومنه قول الراجز:

فيها خطوط من سواد وبلق ... كأنه في الجسم توليع البهق

أي: كان ذلك[1].

"والسر في المصير إلى إجراء الضمير مجرى اسم الإشارة مع أنه لا حاجة إليه بعد تأويل المرجع بما ذكر أو بما رئي ، أن الضمير إنما يتعرض لنفس المرجع من حيث هو من غير تعرض لحال من أحواله ، فلا يتسنى تأويله بأحد الاعتبارين إلا بإجرائه مجرى اسم الإشارة الذي يدل على المشار إليه بالاعتبار الذي جرى عليه في

---

[1] تفسير المنار: ١٢/٢٥١.

الكلام .. هذا إذا قالاه معاً أو قاله أحدهما من جهتهما معاً ، وأما ما إذا قاله كل منهما إثر ما قص ما رآه ، فالخطاب المذكور ليس عبارتهما ، ولا عبارة أحدهما من جهتهما ليتعدد المرجع ، بل عبارة كل منهما: نبئني بتأويله. مستفسراً لما رآه ، وصيغة المتكلم مع الغير واقعة في الحكاية دون المحكي على طريقة قوله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾[1] ، فإنهم لم يخاطبوا بذلك دفعة بل خوطب كل منهم في زمانه بصيغة مفردةَ خاصة به[2].

وقوله: ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ تعليل لعرض رؤياهما على يوسف عليه السلام ليفسرها لهما. وفي كونه " مِنَ الْمُحْسِنِينَ " خمسة أقوال:

أحدهما: أنه كان يعود المرضى ، ويداويهم ، ويعزى الحزين.

والثاني: إنا نراك محسناً إن أنبأتنا بتأويله.

والثالث: إنا نراك من العالمين ، قد أحسنت العلم .. فعلى هذا يكون مفعول الإحسان محذوفاً [ففيها إيجاز بحذف المفعول].

والرابع: إنا نراك ممن يحسن التأويل.

والخامس: إنا نراك محسناً إلى نفسك بلزومك طاعة الله[3].

ولا مانع أن يكون المراد كل ما سبق ، فقد كان يوسف عليه السلام محسناً إلى نفسه بلزومه طاعة الله تعالى ، وبعلمه وحكمته وتأويل الرؤيا، ومحسناً إلى غيره بعودته المريض ، وتعزيته الحزين ، ومساعدته المحتاج ولذا حذف المفعول لإفادة العموم والشمول.

---

[1] المؤمنون: ٥١.

[2] تفسير أبي السعود: ٤/٢٧٦،٢٧٥.

[3] زاد المسير: ٤/٢٢٤،٢٢٣.

وأكدت الجملة بـ "إن" واسمية الجملة لتوكيد الخبر، وبيان أهميته، وكذا لمراعاة مقام الطلب في الجملة الأولى " نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ " فمقام الأمر تحتاج النفس فيه إلى معرفة العلة من أمرها ، وهنا يحسن توكيد الجملة التعليلية. وقدم المسند إليه "ضمير المتكلم" إنَّا" على خبره الفعلي " نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ " لإفادة تقوية الأمر وتوكيده وأهميته والاعتناء بشأنه فإحسانه عندهم من المترلة والفضل بمكان لا يدانيه أحد.

المبحث الرابع
رؤيا ملك مصر

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ۞ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ۞ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ۞ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يوسف٤٣-٤٦.

المعنى العام:

لما دنا فرج يوسف عليه السلام وخروجه من السجن رأى ملك مصر رؤيا عجيبة هالته وأفزعته ، وذلك أنه رأى سبع بقرات سمان خرجت من البحر ، ثم خرج عقبهن سبع بقرات عجاف في غاية الهزال ، فابتلعت العجاف السمان ، فدخلن في بطونهن ، ولم ير منهن شيئاً ، ولم يتبين على العجاف منها شيء ، ثم رأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها ، وسبعاً أخرى يابسات قد استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ، ولم يبق من خضرتها شيء ، فجمع عليه قومه ليعبروا له رؤياه ، فأخبروه بأنها أخلاط أحلام ، وليس لديهم علم بها ، فما كان من ساقي الملك– وهو أحد الفتيين الذي بشره يوسف عليه السلام بنجاته حينما كان معه في السجن – إلا أن دلهم على أن في السجن رجلاً يعبر الرؤيا ، فطلب منهم أن يرسلوه إليه، فجاء يوسف عليه السلام فقص عليه رؤيا الملك ليعبرها له، فيعلم أهل مصر تأويلها، ويعلموا مترلته عليه السلام في العلم(١).

---

(١) ينظر: الكشاف : ٣٢٢/٢. والقرطبي:١٩٨/٩.

"ولما بطل هذا السبب الذي أمر به يوسف عليه السلام وهو تذكير الساقي به ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ - أثار الله - سبحانه - سبباً آخر ينفذ به ما أراد له"[١] فقد كانت هذه الرؤيا التي رآها الملك مما قدر الله - تعالى - أن تكون سبباً لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززاً مكرماً.

التحليل البلاغي:

قوله: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ ﴾ وصل بين هذه الجملة وما قبلها لما بينهما من التوسط بين الكماليين مع عدم المانع ، والتعريف في "الملك" للعهد ، وهو حاكم مصر "الريان بن الوليد" وسماه القرآن ملكاً ولم يسمه فرعون لأنه كان من غير المصريين ، وقد ثبت في تاريخ مصر القديمة أن المصريين كانوا يلقبون "الحاكم" إذا كان منهم بـ "فرعون" ويلقبونه بـ"الملك" إذا كان من غيرهم ، وسيطر عليهم"[٢] وفي هذا تأكيد على أن القرآن من عند الله أنزله على نبيه محمد ﷺ النبي الأمي ، فمن أين له هذا الفرق الدقيق بين الملك وفرعون؟!

وقوله: ﴿ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ أكد الجملة بأكثر من مؤكد "إن" واسمية الجملة وذلك لتأكيد الخبر ، وتحقيق الانكشاف لدى الرائي ، وتثبته مما يقول ، أضف إلى ذلك أن الرؤيا غريبة مما تعجب لها النفوس حتى تكاد تنكرها ، وتلحظ هنا من دلائل الانكشاف والتثبت تحديد العدد "سبع" والنوع "بقرات، وسنبلات" والوصف "سمان" ، وعجاف ، وخضر ، ويابسات" والحدث "يأكلهن"[٣].

---

[١] نظم الدرر: ٤٦/٤.

[٢] القول المنصف في تفسير سورة يوسف: ١١٦.

[٣] ينظر تفسير أبي السعود: ٢٨٠/٤ ، والبحر المحيط: ٣١٢/٥.

وعبر بالمضارع " أرى " عن الماضي "رأيت" لاستحضار الصورة الـتي كـان عليها الفعل في الخيال كأنها واقعة عياناً.

والتنكير في "سبع بقرات سمان" للتفخيم والتعظيم من شأنهن.

والتعبير بالمضارع "يأكلهن" عن الماضي "أكلن" لقصد استحضار الـصورة في الخيال والتعجيب من شأنها ، وللإشارة إلى معنى التجدد فيها وقتاً بعد وقت.

وقوله: "عجاف" جمع عجفاء ، والعجف: الهزال الذي ليس بعده سمانة[1].

وبين قوله: "سمان وعجاف" طباق ، وكذا بين قوله "خضر ويابـسات" وقـد أبان الطباق عن مدى تناقض هذه الرؤيا التي أزعجت الملك وأفزعته ، فطفق يبحث لها عن تأويل وتعبير.

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ ﴾ خطاب للأشراف من العلماء والحكماء بأن يعبروا ويبينوا هذه الرؤيا ، وما تؤول إليه مـن العاقبـة ، والتعـبير بالإفتـاء لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه.

والملأ: هم علية القوم وأشرافهم تمتلئ عند رؤيتهم العيون رواء ، وتكتـسي النفوس جلالاً وبهاء"[2].

والتعريف بالإضافة في قوله "رؤياي" يفيد التفخيم والتعظيم من شأن رؤياه ، وقوله: ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ أي: تعلمون عبارة جنس الرؤيـا علمـاً مستمراً ، وهي الانتقال من الصور الخيالية المشاهدة في المنام إلى ما هي صور وأمثلة لها من الأمور الآفاقية أو الأنفسية الواقعة في الخارج. من العبور وهو المجاوزة تقول:

---

[1] لسان العرب: "عجف".

[2] ينظر تفسير أبي السعود: ٢٨٠/٤ ، والمفردات: "ملأ".

عبرت النهر إذا قطعته وجاوزته ونحوه،أولتها أي: ذكرت مآلها ، وعبرت الرؤيا عبارة: أثبت من عبرتها تعبيراً"[١].

ولصعوبة هذه الرؤيا وخفاء تأويلها إلا على من أوتي حظاً من النبوة عبر بالشرط "إن" للاستبعاد والشك في تأويل الملأ لها.

وقدم الجار والمجرور " لِلرُّءْيَا " على عامله "تعبرون" للاهتمام بأمر رؤياه ، ولمراعاة الفاصلة.

واللام في قوله: " لِلرُّءْيَا " إما أن تكون للبيان كقوله: ﴿ وكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[٢] وإما أن تدخل لأن العامل إذا تقدم عليه معموله لم يكن في قوته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه ، فعضد بها كما يعضد بها اسم الفاعل إذا قلت: هو عابر للرؤيا، لانحطاطه عن الفعل في القوة [وعلى هذا تكون اللام للتقوية] ويجوز أن يكون "للرؤيا" خبر كان ، كما تقول: كان فلان لهذا الأمر ، إذا كان مستقلاً به متمكناً منه. و" تَعْبُرُونَ " خبر آخر ، أو حال وأن يضمن " تَعْبُرُونَ " معنى فعل يتعدي باللام كأنه قيل: إن كنتم تندبون لعبارة الرؤيا"[٣].

وجمع بين الماضي "كنتم" والمستقبل " تَعْبُرُونَ " للدلالة على استمرار تعبيرهم للرؤى وقوله: ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ استئناف مبني على سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا قالوا للملك؟ فقيل: قالوا: هي أضغاث أحلام ..

---

[١] تفسير أبي السعود: ٢٨١/٤ ، وينظر المفردات : "عبر".

[٢] يوسف : ٢٠.

[٣] الكشاف : ٣٢٣/٢.

أو ما تقوله أضغاث أحلام ، ففيها إيجاز بحذف المسند إليه ، لئلا تسند أضغاث الأحلام إلى الملك رفعة لشأنه ، وتتريهاً له.

"والأضغاث: وأحدها ضغث مكسورة ، وهي ما لا تأويل له من الرؤيا تراه جماعات تجمع من الرؤيا كما يجمع الحشيش ، فيقال: ضغث أي: ملء الكف منه...وقال ابن قتيبة: أضغاث أحلام أى: أخلاط مثل أضغاث النبات يجمعها الرجل فيكون فيها ضروب مختلفة." (١)

والأصل: أحلام كالأضغاث ، حيث شبه اختلاط الأحلام ، وما مر به الملك من رؤيته لأمور محبوبة وأخرى مكروهة سيئة باختلاط الحشيش المجموع من أماكن مختلفة ، وأصناف عدة ، فكل واحد منها غير ملائم للآخر ، فهو تشبيه مؤكد ، من إضافة المشبه به للمشبه.

وقد ذكر الإمام "الزمخشري" أن هذا الأسلوب من قبيل الاستعارة حيث قال: "أصل الأضغاث: ما جمع من أخلاط النبات وحزم ، الواحد: ضغث فاستعيرت لذلك"(٢).

كما ذكر "الشريف الرضي" – رحمه الله – أنه من قبيل المجاز ، حيث قال: وهذه أبلغ استعارة ، وأحسن عبارة، لأن أحد الأضغاث: ضغث. وهو الخليط من الحشيش المضموم بعضه إلى بعض ، كالحزمة وما يجرى مجراها ، فشبه –سبحانه–

---

(١) ينظر زاد المسير: ٤/٢٣٠.

(٢) الكشاف : ٢/٣٢٤.

اختلاط الأحلام ، وما مر به الإنسان من المحبوب والمكروه ، والمساءة والسرور باختلاط الحشيش المجموع من أخياف عدة ، وأصناف كثيرة"[١].

وقد دارت مناقشات كثيرة حول صحة إطلاق الإمام الزمخشري لفظ الاستعارة على هذا الأسلوب ، فقد أطال الإمام "الشهاب" في ذلك ، وقال: إن تأويل ذلك على وجهين:

الأول: أنه يريد أن حقيقة الأضغاث: اختلاط النبات ، فشبه به التخاليط والأباطيل مطلقاً ، سواء كانت أحلاماً أو غيرها ... فطرفا الاستعارة أخلاط النبات والأباطيل الملفقات ، فالأحلام ورؤيا الملك خارجان عنهما ، فلا يضيره ذكرهما.

والثاني: أن الأضغاث استعيرت للتخاليط الوقعة في الرؤيا الواحدة، فهي أجزاؤه لا عينها، فالمستعار منه حزم النبات ، والمستعار له أجزاء الرؤيا. وهذا كله إذا استعرت الورد للخد ثم قلت: شممت ورد هند مثلاً ، فلا يقال: إنه ذكر فيه الطرفان"[٢].

ولعل هذه الوجوه لا تخلو من الغموض والتكلف ، ويمكن جعلها من قبيل التشبيه المؤكد ، فيكون ذلك أوضح وأيسر [٣] ، ولعل إطلاق لفظ الاستعارة من الإمام "الزمخشري" فيه تسامح في استعمال المصطلح.

وجمعوا "أضغاث أحلام" مع أنها رؤيا واحدة وذلك للمبالغة في وصفها بالبطلان أو لتضمنها أشياء مختلفة من البقرات السبع السمان ، والسبع العجاف ،

---

[١] تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١٧١. والأخياف: جمع خيف وهو كل هبوط وارتقاء في سفح الجبل، أوما ارتفع عن مسيل الماء.

[٢] حاشية الشهاب: ١٨١/٥.

[٣] أشار إلى ذلك الألوسي في تفسيره: ٢٥١/١٢ ، وكذا في روح البيان: ٢٦٧/٤.

والسنابل السبع الخضر ، والأخر اليابسات ، ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا غيرها مما لم يقصه الله علينا[1]. وقوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ أي المنامات الباطلة التي لا أصل لها بعالمين لا لأن لها تأويلاً ، ولكن لا نعلمه بل لأنه لا تأويل لها ، وإنما التأويل للمنامات الصادقة ، ويجوز أن يكون ذلك اعترافاً منهم بقصور علمهم ، وأنهم ليسوا بنحارير في تأويل الأحلام مع أن لها تأويلاً [2]

وهذا الأسلوب يفيد تأكيد عدم علمهم بالتأويل، واختصاصهم بذلك دون غيرهم ، فهم قد نفوا علم التأويل عن أنفسهم خاصة مع اعترافهم بأن لها تأويلاً عند غيرهم.

ووضع الظاهر " الأَحْلامِ " موضع ضميره فلم يقولوا "ما نحن بتأويلها بعالمين" وذلك لقصد تمكين عدم علمهم ما لا تأويل له في ذهن الملك ، وحتى يمحى ذلك من صدره لكيلا يشغل به.

وقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أي: بعد مدة طويلة ، وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه ، وأعضل على الملأ تأويلها ، تذكر الناجي يوسف عليه السلام، وتأويله رؤياه، ورؤيا صاحبه ، وطلبه إليه أن يذكره عند الملك[3] وفي تعريف المسند إليه "الذي" بالموصولية زيادة تقرير صدق يوسف عليه السلام فهو الذي أخبر الساقي بنجاته عندما أول له رؤياه ، وطلب منه أن يذكره عند ربه ، فنسي طلبه وتذكره بعد مدة طويلة.

---

[1] ينظر فتح القدير: ٣/ ٣٠ ، والكشاف: ٢/٣٢٤.

[2] ينظر الكشاف: ٢/،٣٢٤ ، وتفسير أبي السعود: ٤ /٢٨١.

[3] المرجع السابق نفسه.

ووصل بين هذه الجملة وما قبلها لما بينهما من التوسط بين الكمالين مع عـدم المانع ، وقوله : ﴿ وادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ جملة معترضة بين القول "قَالَ" ومقول القول " أَنَا أُنَبِّئُكُم " وذلك لتنبيه المخاطب على طول المدة التي قضاها يوسـف ﷺ في السجن بعد ما طلب من الساقي ذكره عند الملك ، حيث أنسى الشيطان الـساقي طلب يوسف ﷺفندم على تقصيره في حق من أحسن إليه بتأويل رؤياه ، فمـا أن رأى الملك يقص رؤياه ، وعجز الملأ عن تعبيرها له ، سارع بالتكفير عن تقصيره في حق يوسف ﷺ وتمنى لو فاز بمهمة إرساله إليه ، لأنه هو الذي عنده علم الرؤيـا ، وليحظى بثقة الملك ، والاعتناء به ، فقال: ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ وفي قوله " أُنَبِّئُكُم " مجاز عقلي ، علاقته السببية، حيث أسند فعل الإنباء إلى نفسه مـع أن المنبئ هو يوسف ﷺ ، وذلك لأنه سبب البيان والتوضيح ، وفي هـذا بيـان لأهمية الدور الذي يقوم به في كشف وتوضيح هذه الرؤيا التي عجز عن تعبيرهـا، وما تؤول إليه الأشراف من العلماء والحكماء .

وقدم المسند إليه "أنا" على خبره الفعلي " أُنَبِّئُكُم " لإفادة قصر بيان تأويـل الرؤيا عليه ، فلن تتضح إلا من خلاله ، وفي ذلك يقـول الإمـام "عبـد القـاهر الجرجاني": "إذا عمدت إلى الذي أردت أن تحدث عنه بفعل فقـدمت ذكـره ، ثم بنيت الفعل عليه... تريد أن تدعى الانفراد بذلك ، والاستبداد به ، وتزيل الاشتباه فيه... [1]" ويحتمل أن يكون المراد من تقديم المسند إليه على خبره الفعلـي تقويـة الحكم وتوكيده ، وذلك لأن الكلام خرج مخرج الوعد والضمان ، والـسامع قـد

---

[1] دلائل الإعجاز: ١٢٨.

يعتريه الشك في أمر تتكفل به وتعده إياه، فإذا ما جاء الكلام مؤكداً بالتقديم كان أوقع في النفس مما يجعله مطمئناً إلى ذلك ، والملك أراد أن يفسر له الرؤيا التي رآها ، فضمن له الذي نجا من السجن ممن كان مع سيدنا يوسف عليه السلام فأخرج الكلام مخرج التوكيد ضماناً للوعد الذي قاله. وفي ذلك يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني: "إن من شأن من تعده وتضمن له ، أن يعترضه الشك في تمام الوعد وفي الوفاء به ، فهو من أحوج شيء إلى التأكيد...[1]".

وقوله: ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ أمر خرج عن معناه الحقيقي والمراد به الالتماس ، فالساقي يلتمس من الملك ومن معه إرساله ليأتي يوسف عليه السلام فيؤول لهم رؤيا الملك ، ويحتمل أن يكون الخطاب للملك وحده تعظيماً له.

وفيه إيجاز بحذف مفعول الفعل "أرسل" وذلك للإسراع والرغبة في إرساله قبل أن يسبقه أحد ، وكذا لمراعاة الفاصلة.

وفي قوله ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾ إيجاز بحذف أداة النداء ، وحذف أكثر من جملة ، والتقدير: فأرسل إلى يوسف، فأتاه، فقال يا يوسف .. وذلك للإشعار بمدى سرعة الساقي في إتيان يوسف عليه السلام ولضيق المقام عن الإطالة ، فالملك يرغب في سرعة تأويل رؤياه ، لما أصابه من الهم والكرب لأجلها ، وكأن الساقي لو قال "يا يوسف" لفوت على نفسه فرصة السبق إلى يوسف عليه السلام وناداه مناداة المؤمن المُصَدِّق المعتذر عن تقصيره في حقه ، حيث ناداه بألزم الصفات بإيمانه ، ناداه بـ "

[1] المرجع السابق: ١٣٤ وينظر التقديم والتأخير في القرآن الكريم: ٧٠.

الصِّدِيقُ " "ووصفه بالمبالغة في الصدق حسبما شاهده ، وذاق أحواله وجربها لكونه بصدد اغتنام آثاره ، واقتباس أنواره ، فهو من باب براعة الاستهلال"[١].

وقوله:﴿ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ الأمر فيه خرج عن معناه الحقيقي، والمراد به النصح والمشورة والإرشاد ، فهو يلتمس منه ويسترشده في شأن هذه الرؤيا ، "وحيث عاين علو رتبته عليه السلام عبر عن ذلك بالإفتاء ، ولم يقل كما قال هو وصاحبه أولاً "نبئنا بتأويله". وفي قوله " أَفْتِنَا " مع أنه المستفتي وحده إشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة ، وأنه في ذلك معبر وسفير"[٢].

ونقل ألفاظ الملك التي قالها كاملة ، لأنه يطلب تأويلها ، فكان دقيقاً في نقلها ، وأثبتها السياق مرة أخرى ليبين هذه الدقة أولاً ، وليجيء تأويلها ملاصقاً في السياق لذكرها"[٣].

ويلاحظ الإطناب في أسلوب الساقي وهو يحكي رؤيا الملك ، حيث الألفاظ بنصها كاملة ، بينما أوجز في خطابه للملك وملائه حيث قال: " أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ " وقد أصاب فيهما ، ففي حالة خطابه للملك ومن معه المقام يتطلب الإسراع في تأويل الرؤيا؛ ليزيل كرب الملك وهمه ، ولتزيد ثقة الملك به ، والاعتناء بشأنه. وفي حالة خطابه ليوسف عليه السلام المقام يستدعي قص الرؤيا كما هي حتى يتمكن سيدنا يوسف من تأويلها ، لأن تعبير الرؤيا قد يختلف بسبب اختلاف اللفظ.

---

[١] تفسير أبي السعود: ٢٨٢/٤ .

[٢] المرجع السابق نفسه.

[٣] في ظلال القرآن: ١٩٩٣/٤.

وقوله: ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: إلى الملك ومن عنده، أو إلى أهل البلد إن كان السجن في الخارج، فأنبئهم بذلك فيعملونه، ويعملون بمقتضاه، أو يعلمون فضلك ومكانك مع ما أنت فيه من الحال فتتخلص منه. وبذلك يكون التعريف في "الناس" بـ "أل" للعهد الكنائي، فالملك وملؤه هم الذين جرى لهم ذكر كنائي سابق.

وفي تكرير "لعل" قولان:

أحدهما: أن "لعل" الأولى متعلقة بالإفتاء، والثانية مبينة على الرجوع، وكلتاهما بمعنى كي.

والثاني: أن الأولى بمعنى "عسي" والثانية بمعنى "كي" فأعيدت لاختلاف المعنيين.

أي: عسي أن يرجع إلى الملك ومن معه كي يعلموا تأويل الرؤيا، لو قدر الله- تعالى- أن يعود به إليهم، فربما لم يعلموه لانقضاء أجله أو لعدم فهمهم أو لعدم اعتمادهم. ويترتب بالطبع أن يعلموا فضل وعلم ومكانة يوسف عليه السلام فيكون في ذلك الفرج والخلاص والتمكين له في الأرض[1].

---

[1] ينظر: تفسير البحر المحيط: ٣١٤/٥، وتفسير أبي السعود: ٢٨٢/٤. وروح المعاني: ٢٥٤/١٢ وزاد المسير: ٢٣٢/٤.

المبحث الخامس
رؤيــا إبراهيــم عليه السلام.

قال تعالي: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۞ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۞ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۞ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۞ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ الصافات :٩٩-١٠٥.

المعنى العام:

لما ضاق سيدنا إبراهيم عليه السلام بقومه هجرهم ، وأخبرهم أنه ذاهب إلى حيث أمره ربه ، فإنه سيهديه إلى الجنة والخلاص من نارهم التي أعدوها لحرقه ، ولما هاجر وقدم إلى الأرض المقدسة سأل ربه الولد ، فبشره الله بولد يبلغ ويكون حليماً، فلما بلغ معه السعي رأي رؤيا أنه يذبحه - ورؤيا الأنبياء وحي - وقد رأى هذه الرؤيا مرة بعد مرة فهّم بذبحه ، وعرض الأمر عليه ليعلم أيجزع أم يصبر ، فيصبره إن جزع ، ويأمن عليه الذلل إن صبر وسلم أمره لله ، فما كان منه إلا الانقياد والتسليم لأمر الله ورسوله ، وصبر على بلاء الله - تعالى - فأضجعه أبوه على جبينه وذلك على الأرض لتنفيذ وتحقيق رؤياه ، فكان النداء من الله ، أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، وحققتها فعلاً ، إنا كذلك نجزى المحسنين "باختيارهم لمثل هذا البلاء ، ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء ، ونجزيهم بإقدارهم وإصبارهم على الأداء ، ونجزيهم كذلك باستحقاق الجزاء"[1].

---

[1] الظلال: ٥/٢٩٩٦.

التحليل البلاغي:

قوله: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ أي: إني مهاجر إلى حيث أمرني ربي لأتجرد لعبادته ، ووصل هذه الجملة بما قبلها لما بينهما من التوسط بين الكماليين مع عدم المانع ، فقد أرادوا به الهلاك في النار التي أسموها الجحيم ، وأراد الله أن يكونوا هم الأسفلين ، ونجاه من كيدهم أجمعين ، بأن أمره بالهجرة إلى بلاد الشام.

وأكد قوله: ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ ﴾ بأكثر من مؤكد ، "إن" واسمية الجملة وذلك لتأكيد هجرته إلى الله سبحانه ، تاركاً أهله وبيته ووطنه ، متخففاً من كل شيء يربطه بهذه الأرض الظالم أهلها ، مسلماً أمره كله لله.

وفصل بين هذه الجملة وقوله: ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ لما بينهما من شبه كمال الاتصال، فهذه الجملة بينت علة ذهابه إلى ربه وهجرته ، وذلك لهدايته "وبت القول بذلك لسبق الوعد ، أو لفرط توكله ، وللبناء على عادته- تعالى- معه ، ولذلك أتى بصيغة التوقع" ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي بعض الصالحين يعينني على الدعوة والطاعة ، ويؤنسني في الغربة"[1].

وفي قوله "رب" إيجاز بحذف حرف النداء ، وهذا يومئ إلى مدى قرب إبراهيم عليه السلام من ربه ومناجاته له وتأدبه معه "والنداء لون من الخطاب ، ولا يكون إلا في أمر مهم يستدعى طلب الإقبال[2]".

وحين يعظم هذا الأمر يصحب النداء أساليب أخرى لها تأثير قوى كالأمر والنهي والاستفهام ، وفي هذه الآية عقب النداء الأمر

---

[1] تفسير أبي السعود: ٧ /١٩٩.

[2] في البلاغة القرآنية: ١٣٩

والأمر في قوله: ﴿ هَبْ لِي ﴾ مراد به الدعاء ، فإبراهيم عليه السلام يناجي ربه ويسأله الذرية المؤمنة ، والخلف الصالح ، لأهمية هذا الأمر عنده ليؤنسه ويزيل وحشته.

وعقب إخباره بالذهاب إلى ربه ، والهجرة من بيئة قومه بالنداء والأمر ، لأنه استشعر قلة أهله ، وعقم امرأته ، وساور ذلك الخاطر في نفسه عند إزماع الرحيل، لأن الشعور بقلة الأهل عند مفارقة الأوطان يكون أقوى ، لأن المرء إذا كان بين قومه كان بعض السلو بوجود قرابته وأصدقائه[1].

وحذف المفعول لدلالة الفعل عليه ، حيث غلب في القرآن الكريم مجيء الفعل "وهب" مراداً به الولد ، ولذا يقول صاحب الكشاف: "لفظ الهبة غلب في الولد" ، وإن كان قد جاء في الأخ في قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [2]. وقال عز وجل: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [3] ، وقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ ﴾[4] ،[5]

"ووصفه بأنه من الصالحين؛ لأن نعمة الولد تكون أكمل إذا كان صالحاً ، فإن صلاح الأبناء قرة عين للآباء ، ومن صلاحهم برهم بوالديهم"[6].

وقد استجاب الله دعاءه على الفور ، ولذا جاء العطف بـ "الفاء" التي تفيد الترتيب والتعقيب وذلك في قوله: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ "لأن البشارة بإسماعيل عليه السلام كانت عقب دعاء إبراهيم عليه السلام أن يهب الله له من الصالحين"[7].

---

[1] ينظر التحرير والتنوير: ١٤٨/٢٣.

[2] مريم: ٥٣.

[3] الأنعام: ٨٤.

[4] الأنبياء: ٩٥.

[5] الزمخشري: ٣٤٧/٣.

[6] التحرير والتنوير: ١٤٨/٣.

[7] المرجع السابق نفسه.

ولقد جمع الله في هذه الآية بشارات ثلاث ، بشارة أنه غلام ، وأنه يبلغ أوان الحلم ، وأنه يكون حليماً ، وأي حلم يعادل حلمه عليه السلام حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

وفي قوله: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ ﴾ إيجاز بالحذف لترتبه على محذوف ، والتقدير: فاستجبنا له فبشرناه، وذلك للدلالة على سرعة بشارته بالولد ، وتحقق وقوعها.

وفي قوله "غُلامٍ حَلِيمٍ " مجاز مرسل ، علاقته اعتبار ما سيكون ، ووصف الغلام بصفة "الحلم" ، وكذا وصفه في آية أخرى بصفة " العلم " [١] وذلك حين مولده . وهو لا يكون كذلك إلا بعد حين . والغرض من هذا المجاز في الآيتين طمأنة إبراهيم عليه السلام بأن الغلام سيبلغ مبلغ الرجال . وأنه سيؤتى الحكمة ، ويكون عليماً حليماً ، وتلك بشارة أخرى كان إبراهيم عليه السلام في حاجة إليها ، لأن شأن من يولد له في الكبر أن يظل مشغولاً على من ولده ، خائفاً على مصيره من بعده"[٢].

ونكر "غلام" للتعظيم ووصفه بـ"حليم" لزيادة تكريمه وتعظيمه وعلو شأنه.

وقوله " فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ " أي: بلغ الحد الذي يسعى فيه مع أبيه في أعماله وقضاء حوائجه ، وهو كناية عن قوته وشدة نشاطه.

والفاء فصيحة معربة عن مقدر قد حذف تعويلاً على شهادة الحال ، وإيذاناً بعدم الحاجة إلى التصريح به لاستحالة التخلف والتأخر بعد البشارة ، والتقدير: فوهبناه له فنشأ ، فلما بلغ رتبه أن يسعى معه في أشغاله وحوائجه.

وقوله: "معهُ" بيانٍ لسؤال مقدر فكان سائلاً قال: مع من بلغ السعي؟ فقيل: معه أي: مع أبيه ، لأنه أكمل في الرفق والاستصلاح له ، فلا يستسعيه قبل أوانه ،

---

[١] في قوله : " وبشروه بغلام عليم " الذاريات : ٢٨

[٢] ينظر الكشاف: ٣٤٧/٣ ومن بلاغة النظم القرآني. ٣٨٦

أو لأنه استوهبه لذلك.. وفي هذا يقول الإمام "الزمخشري" – رحمه الله – : "فـإن قلت: "معه" بم يتعلق؟ قلت: لا يخلو إما أن يتعلق بـ "بلغ" ، أو بـ "الـسعي" أو بمحذوف. فلا يصح تعلقه بـ "بلغ" ، لاقتضائه بلوغهما معاً حد السعي ، ولا بـ "السعي" ، لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه ، فبقي أن يكون بياناً ، كأنه لما قال: فلما بلغ السعي أي: الحد الذي يقدر فيه على السعي قيل: مع من؟ فقال: مع أبيه[1].

وقوله: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ التصغير في " بُنَـيَّ " لصغر سن إسماعيل عليه السلام ولدافع الشفقة والألفة والمحبة ، ولعلـو منزلـة إسماعيـل عليه السلام وبعد مكانته استخدم أداة النداء"يا" الموضوعة للبعيد مع أنه قريب منه.

وأكدت الجملة بأكثر من مؤكد بـ "إن" واسمية الجملة لتأكيد الخبر وتقويته ، ولإزالة ما قد يعلق في ذهن إسماعيل عليه السلام من إنكار لغرابة الخبر وهولـه وشـدته ، والتعبير بالمضارع "أرى ، أذبح" عن الماضي "رأيت ، ذبحـت" لاستحـضار تلـك الصورة العجيبة والغريبة في الخيال ، وللإشارة إلى تكرار تلك الرؤيا وتجددها وقتـاً بعد وقت، فقد قيل: إنه رأى ليلة التروية كأن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بـذبح ابنك هذا ، فلما أصبح روى في ذلك من الصباح إلى الرواح أمن الله هذا أو مـن الشيطان؟ فمن ثم سمي يوم "التروية" ، فلما أمسى رأى مثل ذلك ، فعرف أنه مـن الله ، فمن ثم سمي يوم "عرفة" ، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة ، فهم بنحره ، فـسمي يوم "النحر"[2].

---

[1] الكشاف: ٣٤٧/٣ وينظر تفسير أبي السعود:١٩٩/٧.

[2] المرجع السابق نفسه .

والتعبير بقوله " فِي الْمَنَام " يشير إلى مدى فضل الله – سبحانه – على سيدنا إبراهيم ، وتكريمه له، والحكمة في ورود هذا التكليف في النوم لا في اليقظة – كما يقول الإمام الرازي في تفسيره ، بيانها من وجهين:

الأول: أن هذا التكليف كان في نهاية المشقة على الذابح والمذبوح ، فورد أولاً في النوم حتى يصير ذلك كالمنبه لورود هذا التكليف الشاق ، ثم يتأكد حال النوم بأحوال اليقظة ، فحينئذ لا يهجم هذا التكليف دفعة واحدة ، بل شيئاً فشيئاً.

الثاني: أن الله – تعالى – جعل رؤيا الأنبياء – عليهم السلام – حقاً ... والمقصود من ذلك تقوية الدلالة على كونهم صادقين ، لأن الحال إما حال يقظة ، وإما حال منام، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق ، كان ذلك هو النهاية في بيان كونهم محقين صادقين في كل الأحوال"[١].

وأكد الجملة الثانية "أني أذبحك" لإزالة ما قد يعلق في ذهن إسماعيل عليه السلام من إنكار لغرابة هذه الرؤيا.

ويدرك سيدنا إبراهيم أنها إشارة من ربه بالتضحية ، فلا يتردد ، ولا يخالجه إلا شعور الطاعة والتسليم لله رب العالمين ، إنها إشارة وليست وحياً صريحاً وهذا يكفي ليلبي ويستجيب ، ودون أن يعترض ، ولكنه لا يلبي في انزعاج ، ولا يستسلم في جزع، ولا يطيع في اضطراب .. كلا إنما هو القبول والرضا والطمأنينة والهدوء. يبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء وفي اطمئنان عجيب... والأمر شاق – ما في ذلك شك – فهو لا يطلب منه أن يرسل بابنه الوحيد إلى معركة. ولا يطلب منه أن يكلفه بأمر تنتهي به حياته ، إنما يطلب منه أن يتولى هو بيده.. يتولى ماذا؟ يتولى ذبحه .. وهو مع هذا يتلقى الأمر هذا

---

[١] التفسير الكبير: ٢٥٢/١٥.

التلقي ، ويعرض على ابنه هذا العرض ، ويطلب إليه أن يتروى في أمره ، وأن يرى فيه رأيه! [١] وقوله: "فَانظُرْ مَاذَا تَرَى" الفاء تفريعية على ما قرره من شأن الرؤيا ، والأمر "انظر" للتوجيه والتثبيت ، لأن الإجابة العاجلة قد يعقبها خلـل. وإيثـار "ماذا" للدلالة على خطورة الأمر وشدته ، وإحكام الرأي فيه.

والاستفهام حقيقي لا اختلاف في بيان المراد منـه ، فـإبراهيم عليه السلام أراد أن يعرف موقف ولده من هذا الأمر ، أيطيع أم يعصي؟ فشاوره فيه وهو أمر محتـوم ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله – تعالى – فيثبت قدمه إن جزع ، ويأمن عليه إن سلم ، وليوطن نفسه عليه فيهون ، ويكتسب المثوبة عليه بالانقياد له قبل نزوله ، وكان الإيمان الذي حمل أباه على امتثال الأمر قد حمل ولده على الوعد بالطاعـة والامتثال[٢].

وقد ترك لإسماعيل عليه السلام الفرصة ليتأمل ويقرر مصيره ، ولتكون التربيـة في الشورى، وفي مشاورة إبراهيم عليه السلام ولده إسماعيل في أمر ذبحه ما يوحى برجاحـة عقله ، ورصانة فكره ، وفسحة صدره ، وقوة إيمانه كل ذلك جعلـه يرتقـى إلى الأفق الذي ارتقى إليه أبوه من قبل من تذوق حلاوة التسـليم ، ولـذة التطـوع والرضى والطمأنينة لقضاء الله .

وقوله: ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ إجابة الواثق المطمئن لقضاء الله ، فشـبح الموت لا يزعجه ، ولا يفزعه ، ولا يفقده رشده. بل لا يفقده أدبه ومودته.

"وابتداء الجواب بالنداء ، واستحضار المنادى بوصف الأبوة ، وإضافة الأب إلى ياء المتكلم المعوض عنها التاء المشعر تعويضها بصيغة ترقيق وتحنن ، والتعبير عن

---

[١] ينظر في ظلال القرآن: ٥/٢٩٩٥ بتصرف يسير.

[٢] ينظر التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم: ٣/٣٨١ ، وتفسير أبي السعود: ٧ / ٢٠٠.

الذبح بالموصول وهو " مَا تُؤْمَرُ " دون أن يقول: اذبحني ، يفيد وحـــده إيمـــاء إلى السبب الذي جعل جوابه امتثالاً لذبحه.

وحذف المتعلق بالفعل "تؤمر" لظهور تقديره: أي: ما تؤمر به.

وعدل عن أن يقال: اذبحني إلى " افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ " للجمع بين الإذن وتعليلـــه أي: أذنت لك أن تذبحني، لأن الله أمرك بذلك ، ففيه تصديق أبيه ، وامتثال أمر الله فيه"[1] وهذا يدل على أن لكل كلمة في القرآن بحراً تسبح فيه ، لا يغني به بديلاً.

وفصلت هذه الجملة عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، فهي بمثابة جواب عن سؤال مقدر ، كأنه قيل: ماذا قال ولده حينما علم هذا الخبر من أبيه؟

وتصلح هذه الجملة أن تكون جواباً عنه ، بينت مدى الأدب والتوقير لأبيه ، ومدى الطمأنينة والوثوق بوعد الله سبحانه.

وإيثار أداة النداء "يا" الموضوعة للبعيد إشارة إلى علو ورفعة إبراهيم عليه السلام في الطاعة والامتثال ، حيث سمح بذبح ابنه الوحيد الذي رزق به في أرذل العمر طاعة وامتثالاً لأمر الله – تعالى – ومن أجل تلك الرفعة وذاك العلو قال: "يا أبــت" ، ولم يقل: يا أبي. ومن المعلوم أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

وصيغة الأمر " افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ " لا تشعر بمجرد الإذن فحسب بل تشعر بمدى ثبات إسماعيل عليه السلام وصبره ، وعدم تضجره. وتشعر بمدى تسليمه لقضاء الله ، فلم يطلب من أبيه التفكير أو إعطاء مهلة ، وإنما ثبت وأذعن وفوض نفسه لأبيه لينفــذ أمر ربه ، ويصدق بكلماته .

والتعبير بالمضارع "تؤمر" عن الماضي "أمرت" لاستحضار صــورة الحــدث، والإيحاء بالاستمرار والتجدد في الامتثال والطاعة.

---

[1] التحرير والتنوير: ١٥٢/٢٣.

وقوله: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ أي: على الذبح أو على قضاء الله – تعالى– وأكد الطاعة هنا بحرف التنفيس "السين" دون "سوف" أي: هو طائع ممتثل ، ولو جرى الذبح ساعة الحوار بينه وبين أبيه. وإيثار أداة الشرط "إن" دون "إذا" في قوله: " إن شاءَ اللَّهُ " لأن المأمور به مما تجزع منه النفوس جزعاً عظيماً ، وأنه يخشى أن تخور قواه فيجزع ، فاحتاط للأمر بـ "إن" دون "إذا" لما في الأولى من معنى تخلف الجزاء عن الشرط دون الثانية. وهذا من أدب النبوة ، وأخلاق الإيمان الواعي[1] .

وإيثار لفظ المشيئة للاستعانة على تحقيق الوعد ، وهذا يوحى بلجوء إسماعيل عليه السلام إلى الله – تعالى – عند نزول البلاء .

وقوله: " مِنَ الصَّابِرِينَ " أي: من الذين رسخ قدمهم في الصبر ، وقوة التحمل ، حتى عرفوا به وصار سجية لهم. وهو من المبالغة في اتصافه بالصبر ما ليس في الوصف بـ "صابر" لأنه يفيد أنه سيجده في عداد الذين اشتهروا بالصبر وعرفوا به"[2] وكذا لمراعاة الفاصلة.

ويلاحظ من سياق الآيات أن الأمر جد عسير ، ولكنه إشارة من رب العالمين ، وطاعة وتضحية وتسليم من إبراهيم عليه السلام .

ودار حوار بين سيدنا إبراهيم وإسماعيل –عليهما السلام– وبدت مشاعر التسليم من هذا الحوار لأمر الله واضحة جلية ، وملامح الطاعة ظاهرة من كليهما ، ثم يخطو هذا المشهد نحو حيز التنفيذ " فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ " وهنا تظهر

---

[1] التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم: ٣٨١/٣.

[2] التحرير والتنوير: ١٥٣/٢٣.

حقيقة الإيمان ، ونبل الطاعة ، إنه التسليم لله ثقة به، وطاعة وطمأنينة له ، ورضا وتسليماً بقضائه.

والفعل " أَسْلَمَا " يحتمل وجهين:

الأول: إن كان بمعنى "استسلما وانقادا لأمر الله تعالى وخضعا له" يكون الفعل لازماً ، وقد حذف متعلقه وهو الجار والمجرور لظهوره من السياق.

الثاني: إن كان بمعنى: سلم الذبيح نفسه وإبراهيم ابنه ، يكون متعدياً وحذف مفعوله لظهوره من المقام ودلالة المعنى عليه. والحذف ضرب من الإيجاز [1] والعطف بـ " الفاء " في قوله : " فلما " تشعر بسرعة مبادرتهما بالامتثال لأمر الله وخضوعهما له.

وقوله: " وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ " أصل التل: المكان المرتفع ، والتليل : العتيق ، وتله للجبين: أسقطه على التلّ ، كقولك : ترّبه أسقطه على التراب"[2].

والمعنى: أي: صرعه على شقه فوقع جبينه على الأرض ، وهو أحد جانبي الجبهة، وقيل: كبه على وجهه بإشارته كيلا يرى منه ما يورث رقة تحول بينه وبين أمر الله – تعالى – "[3].

واللام في قوله " لِلْجَبِينِ " بمعنى "على" وإيثارها هنا لبيان كمال الرضى والتسليم وحسن استقبال البلاء ، ولو قيل: وتله على الجبين لأوحت "على" بدلالتها على القهر والاستعلاء بأنه صرعه على الأرض مقهوراً على غير رغبته،

(1) ينظر المرجع السابق نفسه ، والبحر المحيط: ٣٥٥/٧ والبيضاوي : ٢٩٧/٢، وروح المعاني: ١٣٠/٢٣.

(٢) المفردات: ٧٥ "تل" .

(٣) تفسير أبي السعود: ٢٠٠/٧.

وهذا يتنافى مع الغرض المقصود ، لأنه ﷺ كان في غاية الطاعة والاستسلام لأمر الله تعالى.

وفي جواب قوله " فَلَمَّا أَسْلَمَا " قولان:

أحدهما: أن جوابه "وناديناه" والواو للتوكيد.

والثاني: أن الجواب محذوف لتذهب النفس فيه كل مذهب ، وكأن الألفاظ لو اجتمعت لا تفي بما حدث لهما ، وكأنه قال: كان ما كان مما ينطق به الحال ، ولا يحيط به المقال من استبشارهما ، وشكرهما لله تعالى على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله ، والتوفيق بما لم يوفق غيرهما لمثله وإظهار فضلهما به على العالمين ، مع إحراز الثواب العظيم إلى غير ذلك[1].

والقرآن يصور لنا هذا المشهد بل تلك المشاهد تصويراً حياً يجول الإنسان بخاطره في هذا المشهد الكامل ، وهذه الصورة المتحركة ، يتخيل أمامه أباً وابنه ، يمسك الأب السكين ، والابن مستسلم له مذعن لربه ، ويصرع الابن على جبينه .. فالصورة مليئة بالحركة مفعمة بالخيال.. ، وليتصور الإنسان مدى البهجة والسعادة لنجاة هذا الابن في تلك اللحظة وفي هذا المشهد ، ومدى وصول هذا الابن وذاك الأب إلى تلك الدرجة من الاستسلام والخضوع لله رب العالمين ، ويصور القرآن تلك المشاهد في صورة وجيزة بليغة لتكون عبرة لأولى الألباب.

ويلتفت إبراهيم ﷺ فإذا بالنداء العلوي من فوق سبع سموات ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وهنا الابتلاء قد تم،

---

(١) ينظر المرجع السابق نفسه، والبحر المحيط: ٣٠٧/٧، والمثل السائر:٣٦٠/٢،ومن بلاغة القرآن:١٢٦،والحذف البلاغى فى القرآن:١٢٦.

والامتحان قد وقع ، ونتائجه قد ظهرت ، وغاياته قد تحققت ولم يعد إلا الألم البدني ، والدم المسفوح ، والجسد الذبيح ، والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء ... ومتى خلصوا له ، واستعدوا للأداء بكلياهم فقد أدوا ، وحققوا التكليف .. وقد عرف الله – سبحانه – من إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – صدقهما فاعتبرهما قد أديا وحققا الرؤيا فعلاً[1].

وفي قوله: "وناديناه" مجاز عقلي ، علاقته السببية ، حيث أسندت المناداة إلى ضميره – سبحانه – "نا" لأنه هو الآمر بها ، وفي هذا تكريم وتشريف لنبي الله إبراهيم عليه السلام، وكذا في إيثار أداة النداء "يا" مما يدل على رفعته وعلو شأنه عند ربه "وفخم هذا النداء بحرف التفسير "أن" في قوله: " أن يَا إِبْـرَاهِيمُ " "[2]، ودخول "قد" على الفعل الماضي " صَدَّقْتَ " تفيد تأكيد وتحقيق امتثال إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – لأمر الله – تعالى – بهدوء وطمأنينة دون كلل أو ملل.

وقوله: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ تعليل لتخويل ما خولهما من الفرج بعد الشدة ، والظفر بالبغية بعد اليأس ، أي: مثل عظمة ذلك التصديق نجزى جزاء عظيماً للمحسنين ، أي الكاملين في الإحسان ، وأنت منهم.

ولما تضمن لفظ الجزاء معنى المكافأة ، ومماثلة المجزى عليه عظم شأن الجزاء بتشبيهه بمشبه مشار إليه بإشارة البعيد المفيد بعداً اعتبارياً، وهو الرفعة، وعظم القدر في الشرف ، والتقدير: إنا نجزي المحسنين جزاء كذلك الإحسان الذي أحسنت به بتصديقك الرؤيا، مكافأة على مقدار الإحسان ، فإنه بذل أعز الأشياء عليه في طاعة ربه، فبذل الله إليه من أحسن الخيرات التي بيده تعالى، فالمشبه

---

[1] ينظر في ظلال القرآن:٥ /٢٩٩٦.

[2] نظم الدرر: ٣٢٨/٦.

والمشبه به معقولان إذ ليس واحد منهما بمشاهد ، ولكنهما متخيلان بما يتسع لــه التخيل المعهود عند المحسنين مما يقتضيه اعتقادهم في وعد الصادق من جزاء القادر العظيم[١]

[١] ينظر الكشاف: ٣٤٨/٣ ، والتحرير والتنوير: ١٥٤/٢٣.

المبحث السادس

رؤيا النبي ﷺ في الحديبية.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ الفتح: ٢٧.

سبب نزول الآية:

كان رسول الله ﷺ رأى في المنام خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين ، وقد حلقوا رؤوسهم ، وقصروا ، فقصّ الرؤيا على أصحابه ففرحوا ، واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم هذا ، فلما تأخر ذلك قال بعض المنافقين [عبد الله بن أبي ، وعبدالله بن نفيل ، ورفاعة بن الحرث]: والله ما حلقنا ، ولا قصرنا ، ولا رأينا المسجد الحرام ، فنزلت هذه الآية. وعن مجاهد قال: رأى النبي ﷺوهو بالحديبية أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، فلما نحر الهدي بالحديبية قال أصحابه: أين رؤياك يا رسول الله؟ فنزلت هذه الآية[١].

التحليل البلاغي:

قوله: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾ أكد صدق رسول الله ﷺ في رؤياه بأكثر من مؤكد بـ "اللام" ، و"قد" ، وأسلوب القسم وذلك لأن اللام موطئة لقسم محذوف، والتقدير: والله لقد صدق، وذلك للرد على مزاعم وأباطيل وإنكار المنافقين، وإجابة عن سؤال بعض الصحابة: أين رؤياك يا رسول الله؟ وبيان أن ما رآه النبي ﷺ رؤيا صادقة ، وليست أضغاث أحلام ، فهي كائنة لا محالة إذ هي وحي من الله تعالى.

---

(١) ينظر لباب النقول في أسباب النزول: ٣٠٥ ، وتفسير أبي السعود: ١١٣/٨.

"ولما كان للنظر إلى الرؤيا اعتباران: أحدهما من جهة الواقع ، وهو غيب عن الصحابة – رضي الله عنهم– والآخر من جهة الإخبار، وهو مع الرؤيا شهادة بالنسبة إليه– سبحانه وتعالى – عبر بالصدق والحق فقال:﴿صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾[1].

وعرف المسند إليه لفظ الجلالة "الله" بالعلمية لتفخيم وتعظيم الأمر وتوكيده. "وآثر النظم الكريم التعبير بلفظ الرسالة في المفعول به " رَسُولَهُ " على لفظ النبوة ، للإيحاء بوظيفة الرسول ﷺ ألا وهي إبلاغ الرسالة ، وهو في ذلك غنى عن الإخبار عما لا يكون أنه يكون ، فكيف إذا كان المخبر رسوله؟" [2].

وفي إضافة المفعول "رسول" إلى الضمير الذي يعود على الله – سبحانه – دلالة على أن المقصود به رسوله محمد ﷺ ، وذلك لأن الإرسال قد يكون لغير الله – تعالى – [3] والتعريف بالإضافة – أيضاً – يفيد التشريف والتعظيم لهذا الرسول الكريم.

وجاء متعلق الفعل " الرُّؤْيَا" منصوباً بنزع الخافض ، وهو المسمى بالحذف والإيصال أي: حذف الجار وإيصال الفعل إلى المجرور بالعمل فيه النصب ، وأصل الكلام: لقد صدق الله رسوله في الرؤيا [4]، والحذف ضرب من الإيجاز، وذلك للتعجيل بالإخبار بالرؤيا الصالحة بشارة للنبي ﷺ وأصحابه.

ولما كانت الرؤيا يطابقها الواقع وصفت بالحق فقال: " بِالْحَقِّ " ، وجاء الجار بـ"الباء" للدلالة على الملابسة ، وهو ظرف مستقر ، وهذا القول "بِالْحَقِّ" صفة

---

[1] نظم الدرر : ٢١٢/٧.

[2] المرجع السابق نفسه.

[3] الفروق اللغوية: ٣١٩.

[4] الكشاف: ٥٤٩/٣.

لمصدر محذوف للتأكيد أي: صدقاً متلبساً بالحق ، ويجوز أن يكون قوله: " بِالْحَقِّ " حالاً من الرؤيا، أي: حال كونها ملتبسة بالحق ، وليست من قبيل أضغاث الأحلام[١].

ويحتمل أن يكون قوله: " بِالْحَقِّ " قسماً بالله ، فإن الحق من أسمائه ، أو قسماً بالحق الذي هو نقيض الباطل ، وقوله " لَتَدْخُلُنَّ " جوابه.

أو يكون قوله " لَتَدْخُلُنَّ " جوباً لقسم محذوف تقديره: والله لتدخلن المسجد الحرام ، والحق – سبحانه – لا يقسم إلا في الأمور المهمة الجليلة ، وفي ذلك بيان وتأكيد لدخول المسجد الحرام ، وأنه وعد مؤكد للمؤمنين ، وأنهم سيفتحون مكة ، وليس المراد المسجد الحرام وحده، بل المقصود مكة وما تشمله ، فأطلق الجزء " الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ " على كل مكة، وذلك على سبيل المجاز المرسل، وعلاقته الجزئية ، لأهمية هذا الجزء وفضله على غيره.

وجاء الوعد بالدخول المشتمل على الأمن، وعدم الخوف مع الحلق والتقصير مؤكداً – أيضاً – لطمأنة نفوس المؤمنين، وبشارة لهم ، وإسكاتاً للمنافقين.

وفصل بين جملة " لَتَدْخُلُنَّ " وما قبلها لما بينهما من كمال الاتصال ، فهي بمثابة بيان لها ، ففي قوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ إجمال ، وجاء قوله:" لَتَدْخُلُنَّ... " تفصيلاً لما أجمل في الجملة السابقة ، ولما كان المسلمون متشوقين إلى سماع كنه وحقيقة هذه الرؤيا، جيء بها في صورة التفصيل بعد الإجمال ، ليرى المعنى في صورتين ، فيتمكن في النفس فضل تمكن ، والعلم إذا وقع بعد تشوق إليه وجذب للانتباه كان له لذة ورسوخ لا تكون بغيره.

---

[١] ينظر المرجع السابق نفسه ، مفاتيح الغيب: ١٠٥/١٤ ، وحاشية الشهاب: ٢٩٨/٨ ، وتفسير أبي السعود: ١٧١/٦.

وقوله: ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ جملة اعتراضية يحتمل أن تكون معترضة للتبرك[1].

وفيها تعريض بأن وقوع الدخول من مشيئة الله – عز وجل – لا بقدرة الإنسان ،

فهو وعد لهم لأجل التعريض بهم ، والإنكار على المعترضين على الرؤيا[2].

ويحتمل أن تكون هذه الجملة معترضة للإشعار بأن بعضهم لا يدخل مكة

لموت أو غيبة ، فهي كناية عن أن منهم من لا يدخلها؛ لأن أجله يمنعه[3].

وفي ذلك تعليم للعباد بأن يقولوا " إن شَاءَ اللَّهُ " بإسناد كل شيء سيحدث

في المستقبل إلى مشيئته تعالى.

وجاء التعبير بالاسم في قوله: ﴿ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾

للدلالة على ثبوت الأمن لهم ، أي: لتدخلن المسجد الحرام حال كونكم آمنين ،

فصفة الأمن ثابتة لهم، لا يروعهم الكفار ، فلا خوف عليهم.

ويصور ما لهم بعد دخولهم آمنين بقوله: ﴿ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ

وَمُقَصِّرِينَ ﴾ أي: محلقاً بعضكم ومقصراً آخرون ففيه تقدير محذوف، أو هو من

نسبة ما للجزء للكل ، والقرينة أنه لا يجتمع الحلق والتقصير إذ هما مختلفان ، فلابد

من نسبة كل منهما لبعض منهما ، فالواو هنا لاجتماع الحلق والتقصير في مجموع

القوم ، فمنهم من حلق ومنهم من قصر" [4] ففيها مجاز مرسل علاقته العموم ، فقد

---

[1] الإتقان: ٣/٢٢٣.

[2] حاشية الشهاب: ٨/٦٨.

[3] تفسير أبي السعود: ٦/١٧١.

[4] حاشية الشهاب: ٨/٦٩.

نسب الحلق الذي سيقع لبعضهم إليهم جميعاً ، ونسب التقصير الذي سيقع لبعضهم إليهم جميعاً ، فأطلق العام وأراد الخاص. وفي ذلك كناية عن تمكنهم من أداء شعائر الحج والعمرة، وذلك من دلائل استمرار الأمن لهم وثبوته .

وفي قوله " رُءُوسَكُمْ " مجاز مرسل علاقته المحلية ، حيث أطلق المحل وأراد الحال فيه وهو الشعر، وصيغة التفعيل " مُحَلِّقِينَ ومُقَصِّرِينَ " تدل على أن فاعل الحلق والتقصير كثير .

وقدم الحلق على التقصير لأنه أولى وأفضل من التقصير ، وأعلى في الثواب، وثنى بالتقصير لبيان جواز الأمرين[1] .

ولما كان المقام محتاجاً إلى التوكيد جاءت جملة النفي في قوله " لا تَخَافُونَ" لتؤكد الأمن المدلول عليه باسم الفاعل " آمِنِينَ " .

ونفي الخوف هنا ليس تكراراً للأمن المعبر عنه في قوله:" آمِنِينَ"؛ لأن الأمن ليس شعوراً داخلياً وإنما هو حالة خارجية يرتبط بها شعور داخلي، وهو الطمأنينة داخل نفوس المؤمنين التي استلزمها التعبير باسم الفاعل"آمِنِينَ". وحذف مفعول الفعل المنفي" لا تَخَافُونَ " لعموم هذا النفي وشموله لكل ما يمكن أن يوقع الخوف في قلوبهم من عدو وغيره ، وكذا لكمال الأمن بعد الحج ، وذلك لأن بعد الحلق يخرج الإنسان عن الإحرام، فلا يحرم عليه القتال ، وكان أهل مكة يحرم عليهم

---

[1] ينظر نظم الدرر: ٢١٣/٧.

قتال من أحرم ، ومن دخل الحرم ، فقال: تدخلون آمنين ، وتحلقون ، وتقصرون ، ويبقى أمنكم بعد خروجكم من الإحرام.

وجملة" لا تَخَافُونَ " يمكن أن تكون حالاً ، أو أن تكون استئنافاً بيانياً ، جواب سؤال مقدر ، وكأن سائلاً سأل: كيف الحال بعد الدخول؟ فكان الجواب: لا تخافون أبداً، وفي هذا دفع لما قد يتوهم من أنه بعد التحلل قد يتعرضون لأذى ، فجاءت هذه العبارة " لا تَخَافُونَ " مزيلة لهذا التوهم رافعة له[1].

وقوله: ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ أي: بسبب علمه صدق رسوله في رؤياه. والمراد بعلمه -تعالى- العلم الفعلي المتعلق بأمر حادث بعد المعطوف عليه ، أي فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة ما لم تعلموا من الحكمة الداعية إلى تقديم ما يشهد بالصدق علماً فعلياً[2].

والتعبير بالموصول في قوله:﴿ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ يفيد تفخيم وتعظيم المعلوم، وذلك لما فى الموصول من إبهام يثرى الخيال، ويوغل فى التصوير.

وفي قوله:﴿ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ طباق أفاد – أيضاً – تفخيم وتعظيم المعلوم ، وأكسب المعنى حسناً وبهاءً لا يتم المعنى بدونه.

وقوله: ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ أي بسبب إحاطة علمه – تعالى – جعل من قبل تحقق رؤيا النبي ﷺ من دخول المسجد الحرام " فَتْحًا قَرِيبًا " وهو كناية عن فتح خيبر ، وذلك ليقوى المؤمنين به ويثبتهم. ولما كان هذه الفتح أمراً

---

(1) صورة من البيان القرآني: ١٥٩.

(2) ينظر تفسير أبي السعود: ١٧١/٦.

عجيباً أثر التعبير بالفعل "جعل" دون "فتح". وعبر عنه بالماضي "جعـــل" لتتريـــل المستقبل مترلة الماضي لتحقق وقوعه ، أو لأن "جعل" بمعنى "قدر" و "من" بيانيه[1].

والتنكير في قوله: " فَتْحًا قَرِيبًا " يفيد تفخيم وتعظيم هذا الفـــتح ، ولبيـــان الاهتمام والعناية بهذا الدخول قدّم الجار والمجرور " مِن دُونِ ذَلِكَ " على المفعول " فَتْحًا قَرِيبًا " ليقوى قلوب المؤمنين لتأخير الدخول إلى العام المقبل ، حيث جعل لهم فتح خيبرٍ قبل ذلك.

---

[1] ينظر التحرير والتنوير: ٢٠٠/٢٦.

الخـــاتمة

الحمد لله في البدء والختام ، والصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا محمـــد وعلى آله وصبحه وسلم.

وبعد:

فقد عشت في رحاب آيات الرؤيا المنامية في القرآن الكريم ، أتدبرها ، وأنهل من معينها ، وأتذوق بلاغتها وإعجاز نظمها ، ولاحظت أنها تشتمل على كثير من الخصائص واللطائف البلاغية ، وكان منها ما يلي:

١- دقة استخدام الصيغة في آيات الرؤيا المنامية – وكـــذا في جميـــع القرآن الكريم – وبديع نظمها ، مما يشيع في نفس السامع ما تحمله من دقة المعاني ، وخفى الإشارات، ويجعلها ملائمة لسياقها ، مطابقة لما يقتضيه المقـــام ، وجـــاءت موحية معبرة عن المعنى الذي جيئت لأجله.

٢- كان لكل كلمة بحراً تسبح فيه ، وجواً تتناغم فيه ، فلا يحل محلها غيرها ، فلا يوضع "الحلم" محل "الرؤيا" ، ولا "الرؤيا" محل "الحلم" وغير ذلك.

٣- كان من أبرز الخصائص واللطائف البلاغية في آيات الرؤيا المنامية ظاهرة التوكيد ، فقد جاءت كلها مؤكدة ، وتنوعت فيها وســـائل التوكيـــد ، ولم يأت في ذاتها تشبيه أو مجاز ، مما يدل على وثوق أصحابها وتحققهم مما يقولون.

٤- الرؤيا قد تحاكى الصورة في نفس الأمر وهو الأكثـــر في مرائـــي الأنبياء- عليهم السلام- ، وقد تحاكى المعنى الرمزي وهـــو الأغلـــب في مرائـــي غيرهم.

٥- تعددت القيود وتنوعت في آيات الرؤيا المنامية ، وكـــان لـــذلك عظيم الأثر في إبراز المعاني وتوضيحها ، والمبالغة فيها.

٦- جاءت فواصل الآيات وختامها متمكنة في مكانها ، وكان لها دور عظيم في بيان المعنى وتوضيحه ، وتوكيده وتقريره حسب ما يقتضيه المقام.

هذه هي أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه ، وأن ينفعنا بما فيه ، وأن يغفر لي ما كان فيه من خطأ أو نسيان ، ويعلم الله أني ما أردت إلا الخير ، فأسأله – سبحانه – المغفرة على تقصيري ، والسداد والتوفيق في عملي ، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

١- الإتقان فى علوم القرآن لجلال الدين عبدالرحمن السيوطى ت ٩١١هـ طبعة دار المعرفة ـ بيروت بدون.

٢- أساليب البيان والصورة القرآنية. د/ محمد إبراهيم شادى ط. دار والى الإسلامية – المنصورة – الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.

٣- الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق د/ عائشة عبد الرحمن، ط. دار المعارف – القاهرة – الثانية، بدون.

٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين أبى الخير عبد الله بن عمر البيضاوى، ت: ٧٩١هـ، ط. مصطفى الحلبى وأولاده بمصر – الثانية، ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م

٥- البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى، ت: ٧٤٥هـ، ط. دار الفكر – بيروت، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

٦- البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار إحياء الكتب العربية – الأولى، ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م.

٧- تاريخ الأنبياء، د/ محمد الطيب النجار، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٨٣م.

٨- التحرير والتنوير للشيخ/ محمد الطاهر بن عاشور، الناشر: دار سحنون للنشر التوزيع – تونس.

٩- التعريفات للشريف الجرجانى، ت: ٨١٦هـ، ط. مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر.

١٠- تفسير أبى السعود المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب العزيز لأبى السعود العمادى، ت: ٩٥١هـ، ط. دار المصحف – القاهرة.

١١- التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الكريم، د/عبدالعظيم إبراهيم المطعنى، ط١ مكتبة وهبة ١٩٩٩م .

١٢- التفسير القرآنى للقرآن للشيخ/ عبد الكريم الخطيب، ط. دار الفكر العربى.

١٣- التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازى، ت: ٦٠٦هـ ، ط . دار الكتب العلمية – طهران – ثانية.

١٤- تفسير المنار للشيخ/ محمد عبده، تأليف/ السيد محمد رشيد رضا ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

١٥- تفسير روح البيان للإمام إسماعيل حقى البروسى، ط. دار الفكر العربى.

١٦- التقديم والتأخير فى القرآن الكريم ، حميد أحمد عيسى العامرى، ط دار الشئون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٦م .

١٧- تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى، تح/ محمد عبد الغنى حسن، ط. دار إحياء الكتب العربية.

١٨- التمهيد لابن عبد البر ، ت / مصطفى بن أحمد العلوي وغيره ، ط وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية ، المغرب .١٣٨٧ هـ

١٩- جامع البيان فى تفسير القرآن لابن جرير الطبرى، ط. دار المعرفة - بيروت - ثانية، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

٢٠- الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله القرطبى، ت: ٦٧١هـ، ط. دار إحياء التراث العربى ببروت.

٢١- حاشية الشهاب المسماة "عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى للقاضى شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجى، ت: ١٠٦٩هـ، ط. دار صادر - بيروت.

٢٢- حاشية القونوى على تفسير الإمام البيضاوى، لعصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفى، ط١ دار الكتب العلمية -بيروت ٢٠٠١م.

٢٣- حاشية محيى الدين شيخ زاده على تفسير القاضى البيضاوى، ط. المكتبة الإسلامية - تركيا.

٢٤- الحذف البلاغى فى القرآن الكريم، مصطفى عبد السلام أبو شادى، ط. مكتبة القرآن بالقاهرة.

٢٥- دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجانى، تح/محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجى، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٢٦- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للعلامة شهاب الدين الألوسى، ط. إحياء التراث العربى - بيروت.

٢٧- زاد المسير فى علم التفسير لأبى الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على الجوزي،ط١ المكتب الإسلامى- بيروت ١٩٦٥م.

٢٨- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيرى النيسابورى ت ٢٦١هـ ، تح/ محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربي _ بيروت.

٢٩- صورة من البيان القرآني،د/جلال الدين الذهبي، مطبعة الأمانة ١٩٨٤م.

٣٠- فتح البارى لأحمد بن على بن حجر أبو الفضل العسقلانى الشافعى، ت ٨٥٢هـ،طبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ١٩٥٩م.

٣١- فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير للإمام الشوكانى، ت: ١٢٥٠هـ،ط. مصطفى البابى الحلبى بمصر- ثانية، ١٣٨٣هـ -١٩٦٤م.

٣٢- الفروق اللغوية ، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى المتوفى نحو سنة ٤٠٠هـ ،ت / محمد باسل عيون السود ، طبعة - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان .

٣٣- فى البلاغة القرآنية ، د/ صباح عبيد دراز، مكتبة الكلية بدمنهور، بدون.

٣٤- فى ظلال القرآن للشيخ/ سيد قطب، ط. دار الشروق - الثالثة عشرة - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣٥- القاموس المحيط للفيروزابادى، ت: ٨١٧هـ، ط. مؤسسة الرسالة - بيروت - الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٣٦- القول المنصف فى تفسير سورة يوسف ، محمد طه الباليسانى، وزارة الأوقاف العراقية،١٩٨٣م.

٣٧- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للعلامة الزمخشرى، ت: ٥٣٨هـ، ط. دار الفكر.

٣٨- الكليات لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوى ت (١٠٩٤هـ = ١٦٨٣م ، ت د/ عدنان درويش محمد المصرى ، ط دار الكتاب الإسلامى ، القاهرة.

٣٩- لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ،ط دار التقوى .

٤٠- لسان العرب لابن منظور، تح/ عبد الله على الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلى، ط. دار المعارف بالقاهرة.

٤١- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير، تح د/ أحمد الحوفى، د/ بدوى طبانة، ط. مكتبة نهضة مصر - القاهرة - الأولى، ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م.

٤٢- مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازى، ط. دار الكتب العلمية - بيروت - الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٤٣- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - وضعه محمد فؤاد عبد الباقى، ط. دار الحديث - القاهرة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٤٤- المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى، تح/ محمد سيد كيلانى، ط. دار المعرفة - بيروت - لبنان.

٤٥- من بلاغة القرآن، د/ أحمد أحمد بدوى، ط. مكتبة نهضة مصر بالفجالة ١٣٧٠هـ ١٩٥٠م.

٤٦- من بلاغة النظم القرآنى، د/ بسيونى فيود، ط. مطبعة الحسين الإسلامية - القاهرة - الأولى ١٤٢٣هـ - ١٩٩٢م.

٤٧- من وحى القرآن، د/إبراهيم السامرائى، ط اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس الهجرى العراق ١٩٨١م .

٤٨- موسوعة تفسير سورة يوسف، تأليف/ عليش متولى بدوى البنى، ط جماعة مسجد الحسينان - الكويت.

٤٩- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للإمام البقاعى، ت: ٨٨٥هـ، تح/ عبد الرازق غالب المهدى، ط. دار الكتب العلمية - بيروت - الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

الفهـــرس

الموضـــوع	رقـم الصفحـة

محتويات العدد السادس والعشرين

الجزء الثاني